الفتح المبين

في جملة من أسرار الدين

أو

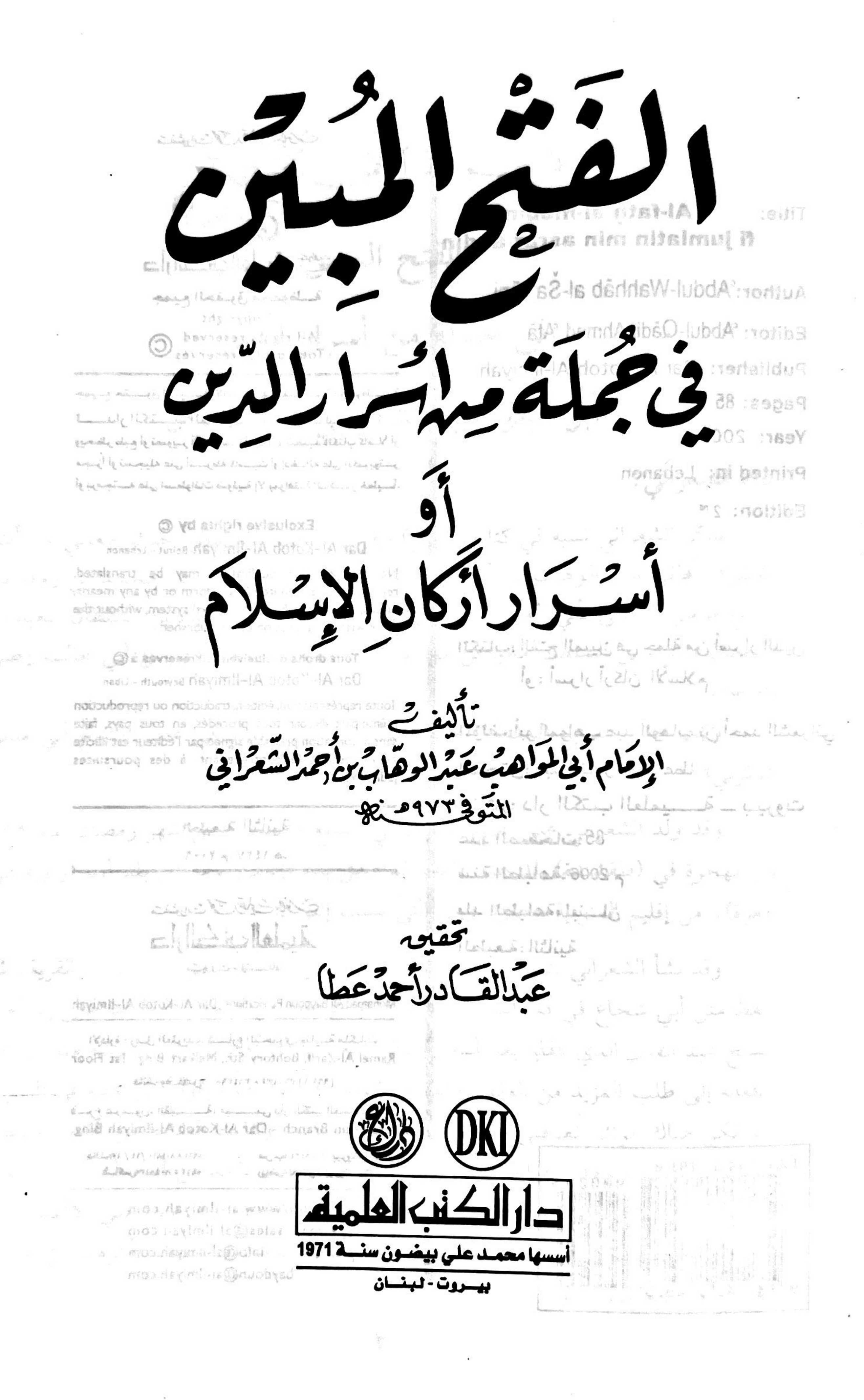
أسرار أركان الإسلام

تأليف
الإمام أبي المواهب عبد الوهاب بن أحمد الشعراني
المتوفى ٩٧٣ هـ

تحقيق
عبد القادر أحمد عطا



دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان



الفتح المبين

في جملة من أسرار الدين

أو

أسرار أركان الإسلام

تأليف

الإمام أبي المواهب عبد الوهاب بن أحمد الشعراني

المتوفى ٩٧٣ هـ

تحقيق

عبد القادر أحمد عطا

DKI

دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون



دار الكتب العلمية بيروت لبنان

جميع الحقوق محفوظة
Copyright
All rights reserved
Tous droits réservés ©

جميع حقوق الملكية الادبية والفنية محفوظة لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

Exclusive rights by ©
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beirut - Lebanon
No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Tous droits exclusivement réservés à ©
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beyrouth - Liban
Toute représentation, édition, traduction ou reproduction même partielle, par tous procédés, en tous pays, faite sans autorisation préalable signée par l'éditeur est illicite et exposerait le contrevenant à des poursuites judiciaires.

الطبعة الثانية
٢٠٠٦ م-١٤٢٧ هـ

منشورات محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

الإدارة : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
Ramel Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg., 1st Floor
هاتف وفاكس: ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ (١ ٩٦١)

فرع عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
Aramoun Branch - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
هاتف: ١١/ ٨٠٤٨١٠ / ١٢ ٥ ٩٦١+ — ص.ب: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+ — رياض الصلح - بيروت ٢٢٩٠ ١١٠٧

http://www.al-ilmiyah.com
e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

Title: **Al-fatḥ al-mubin fi jumlatin min asrār al-din**

Author: ʿAbdul-Wahhāb al-Šaʿrāni

Editor: ʿAbdul-Qādir Aḥmad ʿAṭā

Publisher: Dar Al-kotob Al-Ilmiyah

Pages: 85

Year: 2006

Printed in: Lebanon

Edition: 2nd

الكتاب: الفتح المبين في جملة من أسرار الدين
أو : أسرار أركان الأسلام

المؤلف: أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد الشعراني

المحقق: عبد القادر أحمد عطا

الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت

عدد الصفحات: 85

سنة الطباعة: 2006 م

بلد الطباعة: لبنان

الطبعة: الثانية



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الفتح المبين

في جملة من أسرار الدين

أبو المواهب الشعراني في الميزان

نشأة الشعراني:

يذكر الشعراني نسبه في كتابه (المنن) فيقول: «أحمد الله تعالى حيث جعلني من أبناء الملوك، فإني عبد الوهاب بن أحمد بن علي بن أحمد بن علي بن محمد بن زوفه بن الشيخ موسى المكنى بأبي العمران، جدّي السادس ابن السلطان أحمد بن السلطان سعيد بن السلطان فاشين بن السلطان محيا بن محمد ابن الحنفية بن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وكان جدّي السابع السلطان أحمد سلطاناً بمدينة تلمسان في عصر الشيخ أبي مدين المغربي».

وقد ولد الشعراني على أصح الأقوال في السابع والعشرين من شهر رمضان عام ٨٩٨ من الهجرة في (قلقشندة) بلد جده لأمه، ثم انتقل بعد أربعين يوماً إلى بلد أبيه (زاوية أبي شعرة)، من إقليم المنوفية بمصر، وهي التي ينسب إليها.

وقد نشأ الشعراني يتيماً، إذ مات أبوه وهو صغير، وحفظ القرآن في كتاب القرية، ثم حفظ متن أبي شجاع في فقه الشافعية، ومتن الآجرومية في النحو، درسهما على يد أخيه الشيخ عبد القادر الذي كفله بعد أبيه، وكان استعداده الطبيعي وهمته المتوثبة منذ الصغر يدفعانه إلى طلب المزيد من العلم، والتماس المجد في ظلاله، ويقول عن نفسه في المنن: «لم تكن هناك عوائق تعوقني عن طلب العلم والعبادة، وكانت القناعة من الدنيا باليسير سدادي ولحمتي، وهذه القناعة أغنتني عن الوقوع في الذل لأحد من أبناء الدنيا، ولم يقم لي إني باشرت حرفة ولا وظيفة لها معلوم دنيوي منذ بلغت، وعرضوا علي الألف دينار وأكثر فلم آخذ منها شيئاً، وكان التجار والكبراء يأتون بالذهب والفضة، فأنثرهما في جامع الغمري فيلتقطه المجاورون».

وكان كما يقول: يقوم الليل وهو في التاسعة من عمره مما يدل على تعاظم نزعته الدينية وحبه العبادة منذ الصغر. فاجتمع له العلم والعبادة شأنه في ذلك شأن السلف الأول.

كانت المساجد آنذاك في مصر بمثابة دور للعبادة. ومعاهد علمية تجمع بين العبادة والتعليم، وتجري الأرزاق من الأوقاف والهبات على من يتخصص فيها لطلب العلم، وكان الشعراني أحد طلاب العلم بجامع الغمري في القاهرة، والذي كان أحد هذه المعاهد، ثم انتقل منه إلى مدرسة (أم خوند) التي تقع في شارع بين الصورين.

ويذكر لنا الشعراني تاريخه العلمي في هذه الفترة من حياته فيقول: «لما جئت إلى القاهرة حفظت كتاب المنهاج للنووي، ثم ألفية ابن مالك، ثم التوضيح لابن هشام، ثم جمع الجوامع، ثم ألفية العراقي، ثم تلخيص المفتاح، ثم الشاطبية، ثم قواعد ابن هشام. وحفظت هذه الكتب حتى صرت أعرف متشابهاتها كالقرآن. ثم ارتفعت الهمة إلى حفظ كتاب الروض، مختصر الروضة، لكونه أجمع كتاب في مذهب الشافعي، وأشار على شيوخي ألا أدخل طريق الصوفية إلا بعد شرح محفوظي على الأشياخ، فإذا تم لي التبحر فيها صلحت لطريق القوم.

وقرأت محفوظاتي على شيوخي، وهم نحو خمسين شيخاً، فقرأت على الشيخ أمين الدين شرح المنهاج للجلال المحلي، وكنت أقرأ مع ذلك القوت للأذرعي، والقطعة والتكملة للأسنوي والزركشي، والقطعة للسبكي، والعمدة لابن الملقن، وشرح ابن قاضي شهبة، وشرح الروض للشيخ زكريا الأنصاري، واكتب زوائد هذه الكتب على الشيخ جلال الدين، وألصق فيه أوراقاً حتى ربما تصير الحواشي أكثر من الكتاب، ثم أقرؤها كلها عليه. وقرأت عليه أيضاً شرح جمع الجوامع للشيخ جلال الدين، وحاشية الشيخ كمال الدين، وشرح العراقي للحافظ السخاوي».

هكذا اتقن الشعراني علوم الشريعة وآلاتها الموصلة إليها اتقاناً جعله يقول: انه يعرف متشابهاتها كالقرآن، وأهله لأن يعلق الحواشي على بعض الكتب حتى تزيد الحواشي على أصل الكتاب.

وقد كان يستطيع أن يسلك في طريق التصوف دون أن تكون له قاعدة صلبة من علوم الشريعة كما كان يفعل ـ ولا يزال يفعل ـ بعض الجهلة، ولكنه أطاع المخلصين من الشيوخ واستمع إلى نصحهم له بعدم الدخول في طريق التصوف إلا بعد التحقق والتبحر في علوم الشريعة، وقد كان ذلك.

فبعد أن تم له ذلك انتقل إلى الجانب الآخر من شريعة الإسلام وهو دراسة حقائقها، والتحقق بتلك الحقائق ذوقاً وشهوداً. وهو كغيره من الصوفية يشترط الشيخ للوصول إلى معرفة تلك الحقائق السلوكية التي تصل بالإنسان إلى درجة القرب من الله، ومراقبته في كل شيء، ولكنه أراد أولاً أن يجرب عبقريته فيسلك وحده بلا مرشد، ويسجل ملاحظاته على هذه الفترة من سلوكه فيقول:

«وكانت صور مجاهداتي لنفسي من غير شيخ إنني كنت أطالع كتب القوم، كالقوت للمكّي، والرسالة للقشيري، والعوارف للسروردي، والأحياء للغزالي، ونحو ذلك، ثم أعمل كالذي يدخل درباً لا يدري هل يتقدم أم لا، فإن رآه نافذاً خرج منه، وإلا رجع من التعب، فهذا مثال من لا شيخ له، فإن فائدة الشيخ إنما هي اختصار الطريق، ومن سلك بلا شيخ تاه، وقطع عمره ولم يصل إلى مقصوده».

ويقول في موضع آخر من المنن: «ولو كان طريق القوم يتوصل إليها بالفهم ما احتاج مثل الغزالي وعز الدين بن عبد السلام إلى شيخ، مع انهما كانا يقولان قبل الدخول إلى الطريق: من قال: ان هناك طريقاً للعلم غيرما بأيدينا فقد افترى على الله كذباً، فلما دخلا الطريق قالا: ضيعنا عمرنا بالبطالة والحجاب».

ويقول الشعراني عن تربيته الصوفية: «اجتمعت بخلائق لا يحصون التمس لديهم المفاتيح للأبواب، فلم أجد إلا ثلاثة: علي المرصفي، ومحمد الشناوي، وعلي الخواص». ولكن تربيته الحقيقية كانت على يد الخواص، وهو شيخ أمي، ولكن له ذوقاً وفهماً راسخاً وعميقاً في قضايا الإسلام قلما نجده عند غيره، كما يظهر ذلك من كتبه التي نقلها عنه تلميذه الشعراني.

مكانة الشعراني في علوم الشريعة

وإذا نظرنا إلى الرجل من خلال الذين يهاجمونه فإننا نلاحظ أنهم يركزون على أقوال وقصص تدور حول سلوكه طريق التصوف. وقد تكون تلك القصص مكذوبة عليه إذا نظرنا إليه من وجهة ثقافته الشرعية الهائلة. وقد يكون بعضها صحيحاً كنتيجة لتفتح مواهب الروح عنده، مما يندر إحساس الناقدين به، إذ ان لوعي الروح سطوة وسلطاناً فوق سلطان وعي العقل بكثير. ولكن التحقيق المتصف هو ان نضع الرجل في مكانه الشرعي قبل ان نصدر عليه حكماً قد يكون جائراً، أو قد يكون مبالغاً في تقديره، وانما توسّعنا في ذلك ليدرك القارىء مدى ثقافته الشرعية حين يوازن بينها وبين ما يروى عنه من معلومات تخالف الشريعة نصاً وروحاً.

يقول الشعراني عن ثقافته الشرعية في مرحلة نضجه بعد أن فصل مراحل طلبه للعلم على الوجه الذي نقلناه: «ومما منَّ الله به على مطالعتي لكتب أئمة المذاهب الثلاثة زيادة على مذهبي، وذلك إني لما تبحّرت في مذهب الشافعي احتجت إلى معرفة المسائل المجمع عليها بين الأئمة، والتي اتفق عليها ثلاثة منهم. وذلك لأجتنب العمل بما منعوه، وامتثل أمرهم فيما أمرونا به وإن لم يكن مذهبي، فأعمل بما أجمعوا عليه أو اتفق عليه ثلاثة منهم على وجه الاعتناء والتأكيد أكثر مما انفرد به واحد أو اثنان، لأن ما أجمعوا عليه ملحق بنصوص الشارع ﷺ.

«فمما طالعته من كتب الحنفية: شرح الكنز، وشرح مجمع البحرين، والحدادي، وفتاوى قاضيخان، وشرح القدوري، والبزازية، والخلاصية، وشرح الهداية، وتخريج أحاديثها للزيلعي، وهو كفيل بأدلة الحنفية كلها، وكنت أراجع في مشكلات هذه الكتب الشيخ نور الدين الطرابلسي، والشيخ شهاب الدين الشبلي، والشيخ شمس الدين الغزي الكبير وغيرهم.

«وطالعت من كتب المالكية: المدونة، ثم اختصرتها، والموطأ، وشرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، وشرح مختصر الشيخ خليل، وكتب ابن عرفة، وابن فرحون، وكنت أراجع في مشكلات هذه الكتب الشيخ شمس الدين اللقاني، والشيخ شرف الدين الحطاب، والشيخ عبد الرحمن الأجهوري وغيرهم.

«وطالعت من كتب الحنابلة: الحزقى، وعدة مختصرات، قالوا: ولم يدون الإمام أحمد مذهباً، وإنما دون مذهبه تلاميذه، وإنما مذهبه: الحديث».

وإلى هنا نقف أمام رجل يقرأ ويحصل المسائل، ولكن لم نصل بعد إلى الرجل المحقق في الشريعة، والذي نطمئن إلى ترجيحاته أو اجتهاداته، فهل وصل الشعراني إلى هذه المرتبة؟

يقول عن نفسه: «ومما أنعم الله به على انه أعطاني الفهم في القرآن، وهو مقام عظيم قل من أعطيه من الفقراء، وأيضاً فمما من الله به علي كثرة توجيهي وتقريري لجميع مذاهب المجتهدين حين تبحّرت في علومهم، حتى كأني في حال تقريري لها واحد منهم، وربما ظن الداخل علي وأنا أقرر في مذهب الأمام أنني حنفي أو حنبلي أو مالكي، والحال أنني مقلد للشافعي، وذلك لإحاطتي بمنازع أقوال الأئمة، واطلاعي على أدلتها، وربما قال البعض من المتهورين عني: انني لا أتعبد بمذهب معين، وذلك على وجه التنقيص، والحال أنني أقرر مذاهب الأئمة لوسع اطلاعي، لا تهوراً في الدين، ولا تتبعاً للرخص».

وإلى هنا لا نزال أمام عالم متبحر في علوم الشريعة، عارف بمذاهب مجتهديها، خبير بمداخلها ومخارجها، يحترم كل مذهب، ويضع كل مجتهد في مكانه الصحيح، ويزنه على مقداره الحق، لم يفتر بما أوتي من فهم القرآن والعلم بالمذاهب، فبقي في مكانه من مذهب إمامه الشافعي رضي الله عنه. إلا انه آثر العمل بما أجمعوا عليه جميعاً، أو أجمع عليه ثلاثة من الأئمة الأربعة ولو خالف مذهب الشافعي أو غيره من الأئمة، وذلك حرصاً على ان إجماع الأربعة أو الثلاثة أقرب إلى أن يكون نصاً ملحقاً بنصوص الشارع ﷺ، على العكس مما قال به واحد من الأربعة فإنه لا يتمتّع بالوثاقة والحصانة من الخطأ كما يتمتع القول الذي أجمع عليه ثلاثة.

وإلى هنا تزداد القيمة العلمية للإمام الشعراني حتى تجعلنا نصدر عن رأيه في الشريعة ونحن مطمئنون على ديننا من الزيغ الذي يقول به من لا علم له، أو له علم لا يقوم على أساس من الكتاب والسنة، أو له علم من الكتاب والسنة ولكنه لم يؤت ملكة الترجيح، ولا نور الفرقان بين النصوص، ومن ثم لا نقبل ما ينسبه إليه من خرافات قصد بها واضعوها تشويه هذا العالم المجتهد الراسخ في علمه واجتهاده.

عبقرية وابتكار

ورجل صاحب همة عالية، ودين متين مستقيم كالشعراني لا يمكن أن يقف عند هذا الحد، لأن بوادر تفتح الفقه المقارن بدأت تظهر في دراساته، وهو على وشك أن يخرج علينا بجديد لم يسبق إليه في بحوث الفقه الإسلامي، وهو ما يقرّره عن نفسه إذ يقول:

«وذلك اني لما صنفت كتب أدلة المذاهب رأيت جميع المجتهدين لا يخرجون عن السنة في شيء، وإنما هم بين مشدد ومخفف، فمنهم من أخذ بصريح الحديث أو القرآن، ومنهم من أخذ بمفهومهما، ومنهم من أخذ بما استنبط من ذلك المفهوم، ومنهم من أخذ بالقياس الصحيح على الأصل الصحيح، فكأن مذاهبهم رضي الله عنهم منسوجة من الشريعة، سداها ولحمتها منها، وقد وضعت في الجمع بين أقوال الأئمة ميزاناً ترجع مذاهب المجتهدين وأقوال مقلديهم إلى الشريعة المطهرة، لم أجد لها ذائقاً من أهل عصري، وقد استعارها الشيخ شهاب الدين الشبلي الحنفي فمكثت عنده أياماً، ثم أتاني بها وقال: هذه خصوصية لك، فإني لم أقدر أن أخرج عن دائرة كلام مذهبي. فقلت له: هل هي باطلة؟ فقال: صولة كلامها ليست بطولة مبطل».

وهذا الكتاب الذي يعنيه الإمام الشعراني هو كتاب «الميزان الكبرى». ويبدو أن فكرة الكتاب لما راودته كتب كتابه «الميزان الصغرى». ثم وسعها حينما اقتنع بها، وحينما

عرضها على كبار العلماء، فكتب «الميزان الكبرى» صورة شاملة مستوعبة لفكرته من جميع جوانبها والكتاب قد طبع عدة مرات في مصر وغيرها من البلدان.

أرأيت لو أن عالماً معاصراً خرج علينا بنظرية تقول: انه لا خلاف بين الأئمة الأربعة في الحقيقة، وإنما هم جميعاً يدورون حول عين الشريعة بما فيها من نصوص التشديد والتخفيف رعاية لقدرات الإنسان في كل حال من أحواله، ثم أثبت نظريته هذه بأدلتها ومصادرها، وحقق صحتها بأمثلتها على منهج الاستقراء الشامل، لو أن أحداً صنع ذلك الآن لاستحق أرفع الدرجات العلمية، وتسلطت عليه الأضواء من كل جانب، وتبوأ أرفع المناصب، وأطلقت عليه أعظم الألقاب.

وما ذاك إلا لأنها فكرة لم يسبقه إليها أحد، ولم يلحقه بها لاحق، وقصارى ما كتب العلماء من قبل هو عرض اختلاف الفقهاء وأدلة كل قول، وترجيح دليل على دليل، كتب في ذلك ابن جرير، وابن رجب، وابن جزى، وغيرهم من الأصوليين والمفسرين، وكان مقياس البراعة ان يجيد المؤلف الانتصار لأدلة مذهبه كما فعل الجصاص الحنفي، والهراسي الشافعي، وغيرهما. أما أن يثبت عالم من العلماء أنه لا خلاف، وإنما المسألة تدور حول التخفيف والتشديد ـ وكلاهما من مقاصد الإسلام ـ في دائرة من صريح النص أو مفهومه أو الاستنباط من ذلك المفهوم، أو القياس الصحيح، أو غير ذلك من وسائل الاستنباط، فهذا ما لم يدركه أحد، ولم يفطن إليه أحد قبل الشعراني على الإطلاق.

ولهذا قال الشيخ الفتوحي الحنبلي: «أن الشعراني قد أحاط من العلم بما لم نحط به، وقرأ من الكتب ما لا نعرفه، ولو ادعى تأليفها ما وجد في عصره منازعاً». وشهادة سلفي حنبلي صدر في عصره بذلك للشعراني تضع الرجل في مكانه ليس في عصره فحسب، بل على مستوى العالم الإسلامي في عصوره كلها، لا سيما وأن أحداً لم يقل إلى الآن: أن الشعراني قد أخذ فكرته هذه من غيره.

وقد أدرك المستشرقون في الرجل عقلاً عجيباً، وإدراكاً واسعاً، وعبقرية نادرة. فقال فولورز: «أن الشعراني كان من الناحية العملية والنظرية صوفياً من الطراز الأول، لا يكاد الإسلام يعرف له نظيراً، وان كتبه التي تجاوزت السبعين من بينها أربعة وعشرون كتاباً تعتبر ابتكاراً محضاً أصيلاً لم يسبق إليه». ويقول ماكدونالد: «إن الشعراني كان رجلاً دراكاً نفاذاً مخلصاً واسع العقل».

والشعراني قد فكر طويلاً قبل أن يخرج على عالم الفكر الإسلامي بنظريته هذه، بل بالحقيقة الإسلامية الثابتة في نطاق منهاج الفكر الإسلامي، وهي القول بوحدة الشريعة

وثرائها وطواعيتها وعدم الاختلاف بين الأئمة في الحقيقة، لأننا ندرك من مؤلفاته انه كان مشغولاً بفكرته هذه لزمن طويل، ويعد له منهجاً علمياً أصيلاً لا يقل قيمة عن مناهج البحث الحديث في أعداد الرسائل العلمية.

كان لا بد له من إلمام شامل بأدلة المجتهدين في صورها الأولية دون تخريج ولا فحص للأسانيد، وهو مايسمى بالمسح الشامل لأسانيد الفكرة التي يريد الباحث الكتابة حولها، فكتب في ذلك كتاب «كشف الغمة عن جميع الأمة». فلما سيطرت عليه الفكرة، واقتنع بها، كان لا بد من فحص أسانيد الأحاديث التي جمعها في كتابه السابق لكشف التشديد والتخفيف من خلال قوة الدليل وصراحته، أو ضعفه في نفسه واستناده إلى مصدر قوة آخر، وكتب في ذلك كتابه «المنهج المبين في بيان أدلة المجتهدين»، أخرج فيه أحاديث كتاب (كشف الغمة). ثم احتاج بعد ذلك إلى جمع أحاديث الأمر والنهي، وجعلها جماع أحكام الدين، وأدخل في الأمر المندوبات، وفي النهي المكروهات، وألف في ذلك كتابه «مشارق الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية».

ومن هنا كان منطقه إلى تحديد معالم «الميزان الكبرى» بعد أن كتب «الميزان الصغرى» كما أسلفنا، وهو عمل منهجي قل من فطن إلى مثله من علمائنا الأولين، إذ لم نظفر بمن سار على منهج منظّم من المؤلفين القدامى في بعض كتبه إلا بالإمامين عبد الغني النابلسي في مخطوطته «برهان الثبوت» و«الديوسي في مخطوطته «الأمد الأقصى».

وكما اتسعت ثقافة الشعراني في علوم الفقه والحديث فإنه ألف في أصول الفقه، فاختصر قواعد الزركشي، وألف كتاب «منهاج الوصول إلى علم الأصول»، جمع فيه بين شرح الجلال المحلي لجمع الجوامع، وحاشية ابن أبي شريف، وكتاب «مفحم الأكباد إلى مواد الاجتهاد». وكتاب «الاقتباس في أحكام القياس». وألّف في علوم القرآن «الجوهر المصون في علوم كتاب الله المكنون».

وهكذا نقف أمام قمة راسخة ثابتة الأركان في شريعة الإسلام وعلومها من الفقه والحديث وعلوم القرآن والأصول، أمام عملاق تعقب أسلافه فيما كتبوا في علم الاختلاف، فأبقى على ثراء الشريعة وعطائها في الفكر، ولكنه رد شتات الخلاف إلى المنبع الأول منها.

نقده للصوفية وعلماء العصر:

ولم يغفل الشعراني عن العمل على صيانة الشريعة من الأوهام التي شاعت عند الكثير

من جهلة الصوفية الذين قالوا بحجّية الإلهام والكشف والهواتف والخواطر، فكتب كتاب «لوائح الخذلان على من لا يعمل بالقرآن». وكتاب «حد الحسام على من أوجب العمل بالإلهام». وكتاب «الفحص عن حكم الألهام إذا خالف النص». وكتاب «البروق الخواطف لبصر من عمل بالهواتف».

ولم يغفل الشعراني عن نقد علماء عصره، وكشف ضلالهم في منهاج السنة، فكتب لهم كتاب «تنبيه المغتربين في القرن العاشر على ما خالفوا فيه سلفهم الطاهر». أي انه لم يكن راضياً عن سلوك مجتمعه، بل كان مفتوح العين على انحرافات الناس، ناقداً لتصرفاتهم، مما كان أحد الأسباب التي دعت إلى تاريث نيران العداوة ضد هذا الرجل العظيم إلى جانب ما انطلق نحوه من هذا العداء عن غيره من العلماء، وحسدهم إياه على سبقه وتفوقه على هذه الصورة.

إذن فالشعراني لم يكن منساقاً وراء الوهم والهواتف والإلهامات، ولم يكن يعتبرها حجّة لا على نفسه ولا على الناس كما يفعل جهال الصوفية. فما كان لصاحب فكر أصيل في الشريعة وأدلتها وأصولها على هذه الصورة أن يخضع في حكمه إلا لحجة قائمة لا عَوج فيها ولا غموض.

ولم يكن الشعراني كذلك ممن يفتحون الباب واسعاً أمام جهال المتصوفة يقولون ما يشاؤون من وراء ستار الكشف، بل انه طابق بين عقائد أهل السنة (المتصوفة) وعقائد أهل النظر (الفقه) ويسميهم غيره علماء الأوراق، ولم يسبقه إلى ذلك أحد، وذلك حين نبه إلى أخطاء أولئك الجهلة في أدعيتهم، وكيف أنها تنتهي بهم أحياناً إلى الكفر، كقولهم: يا قديم الزمان، ويا ساكن القبة الخضراء، وغير ذلك، كما حذر من قراءة كتب الشيخ ابن عربي لكثرة ما فيها من الدس كما يقول ابن جماعة، وحذر من الاجتماع بأدعياء التصوف لكثرة ما يدور في مجالسهم من خرافات، ويقول فيهم: «انهم يقنعون بلبس الزي، فإذا سألت واحداً منهم عن قواعد الإيمان قال: «لا أدري» أو عن فرائض الوضوء قال: «لا أدري».

الدس في كتب الشعراني

النفس مولعة بكل طريف وعجيب، لا سيما إذا كان موضوعه متصلاً بالغيبيات، فإذا وجدنا في طبقات الشعراني الكبرى التي يترجم فيها لكبار العارفين بالله: ان شيخاً كانت له علاقة جنسية بالحمير أو بالغلمان، أو أن آخر كشف عورته أمام امرأة ذهب ليخطبها حتى تكون على بيّنة من أمره، أو أن آخرين منهم يشبهون المجاذيب الفاقدين للوعي في عصرنا، وانه يعترف بولاية هؤلاء وأشباههم، والأدهى من ذلك انه استفتى شيخ الإسلام زكريا

وهو القائل في هؤلاء الأدعياء: «وعليك بمطالعة كتب الشريعة من تفسير وحديث وفقه، والاقتداء بأئمة الدين من الصحابة والتابعين ومقلديهم من الفقهاء، وإياك والاجتماع بهؤلاء الجماعة الذين تظاهروا بطريق القوم».

وليس غريباً في عصرنا وقبل عصرنا رمي العباقرة من رجال العلم والدين والسياسة والاقتصاد بالعظائم والموبقات الأخلاقية رغبة في هدم أقدارهم، وتنقيصهم في أعين الناس، حتى رسول الله ﷺ رماه أعداؤه قديماً بأنه سجد للصنم في قصة عجيبة تسمى قصة الغرانيق، وقد نقلها المسلمون في كتبهم، وشغلوا وقتهم بتأويلها، وهي في الواقع كذب وبهتان، فمن يكون الشعراني وغيره من كبار العلماء بعد أن دسوا على الله ورسوله؟!

مسجد الشعراني

حينما قدم السلطان سليم الأول إلى القاهرة خف إليه العلماء والكبراء لاستقباله، وبقي الشعراني مكانه لم يتحرك، ولم يكن الشعراني مجهولاً في عصره في مصر، فقدم السلطان إليه للسلام عليه في موكب ضخم، وذاع صيته أكثر مما كان بعد هذا الحدث، لا سيما وانه وقف في صف القاضي محيي الدين عبد القادر ضد نائب السلطنة حتى انتصر القاضي، وسارع القاضي ببناء مسجد أهداه للإمام الشعراني، ليكون مركزاً من مراكز العلم على عادة العصر، وهو المسجد المعروف باسمه في القاهرة إلى الآن في ميدان «باب الشعرية» وبنى زاوية في المسجد لتكون مقراً للشيخ ولطلاب العلم، وسارع أهل الخير فأوقفوا على المسجد الأراضي والأموال الهائلة عوناً للشيخ على المضي في رسالته التي كان يجد في تنفيذها بكل ما أُوتي من قوة.

كان الشعراني ينفق من الأوقاف على طلاب العلم والشيوخ ومريدي طريق التصوف، ويضمن لهم إقامة كاملة سعيدة في المساكن الملحقة بالمسجد، حتى انه كان يزوج تلاميذه ويجهزهم بكل ما يحتاجه الزوج لزوجته من اللباس والفرش والعطور، بل ان المعونات المالية من أوقاف المسجد كانت قد امتدت إلى المجتمع المصري بالعون للفقراء والأرامل واليتامى، الأمر الذي لم يكن في مقدور الأزهر ان يقوم به آنذاك، وكانت للشعراني بذلك العمل شعبية هائلة في مصر، فأوجست منه السلطات الحاكمة خيفة، لا سيما وانه كان صاحب منهج إصلاحي في شؤون السياسة إلى جانب منهجه الإصلاحي الاجتماعي، ومنافسته للأزهر في نشر العلم.

كان يمد يده لعون فقراء الشعب الذين يئنون تحت وطأة الحكم التركي، ويدرك تماماً مدى صلف هؤلاء الحكام الأتراك وتسلطهم، واحتقارهم للشعب، وفي الوقت نفسه كان

يتكفل بإعاشة طلاب العلم وأسرهم في زاويته، ثم فكر في وسيلة تصدم كبرياء الترك، واكتشف انهم لا هم لهم إلا جمع المال باسم الضرائب والمكوس، لا سيما من الفلاحين الكادحين، فكان منهجه الذي يركز عليه هو ألايعمل طلابه ومريدوه عملاً من الأعمال التي تمكن الترك من المال.

ولهذا كان له أعداء كثيرون هم: الحكام رغم احترامهم له، وعلماء الأزهر باعتباره منافساً للجامع الأزهر في اختيار الوسيلة الناجحة لتفريغ الطلاب لطلب العلم والعبادة، وجهلة الصوفية ـ وما أكثرهم ـ إذ كان دائم التنديد بهم، والتحذير منهم، ومن خرافاتهم وضلالالتهم.

كان مسجد الشعراني إلى جانب كونه مركز إشعاع للثقافة الأزهرية التقليدية معنياً بالدراسات الصوفية العملية الواعية، وبالثورة الاجتماعية والسياسية الشاملة لأقاليم مصر، وكان اعتناؤه بتنقية التصوف من الشوائب، ورد العلماء إلى جادة السنة يخدم ثورته على كبرياء الترك من رجال الحكم، فالترك كانوا يشجعون جهال الصوفية ومنحرفي العلماء، لأن لهما سلطاناً على العامة في ظل الخرافة التي يذيعونها بينهم، وكانوا يستغلون هؤلاء البسطاء استغلالاً بشعاً ندد به الشعراني في رسالته المخطوطة التي أشرنا إليها، وأكد فيها بعد استخفافه بهم ان تعطل هؤلاء الجهلة عن العمل، وحياتهم عالة على الفلاحين الكادحين نقض صريح لمقام التوكل الصحيح.

وندد كذلك ببعض العلماء الذين يعنون بقراءة القرآن ولا يخشعون له، ولا يقومون بحقّه، وقال: «ان مثلهم مثل من أتاه كتاب من السلطان يأمره وينهاه فيه، فاشتغل بتجويده بالإمالة والتفخيم والترقيق، فلما بعث السلطان يستوضح ما تم في أمره لم يجد شيئاً».

والذي حدث ان أدعياء التصوف والسطحيين من العلماء تآمروا عليه لقتله غيلة، ولكن الله نجاه، فحاولوا بعد ذلك قتله بالسم، فلم يفلحوا، ولما هتك الغيظ قلوبهم أشاعوا موته، ويقول الشعراني: «ومما وقع لي ان بعض الأقران غلب عليه الحسد حتى أشاع عني اني مت فجأة، وأرسلوا بذلك إلى دمياط والمحلة الكبرى والاسكندرية وغيرها».

كلمة حق

لم تكن إشاعة موته كذباً إلا قمة الغيظ، وقمة انعدام الحيلة في إسكات هذا الرجل، فلم يكن بد من ادعاء أن ما هم عليه من الباطل ما هو إلا مذهب الشعراني نفسه، وبذلك

يضمنون عدم تأثر العامة بدعوته ضد هؤلاء الأدعياء من جهة، وتشويه الرجل من جهة أخرى.

فالأباطيل السائدة في العصر، والتي دس بعضها في كتب الشعراني هي من صميم الفكر الصوفي الشعبي المشبوه الذي كان يحاربه الشعراني، وليست من الفكر الصوفي الناضح الهادف الذي دعا إليه.

والدليل على ذلك أن هذه الأفكار ما زالت إلى الآن تمثل الفكر الصوفي الشعبي الممزق، فما زلنا نسمع عن بهلوانيات تروى كذباً عن الشيوخ، وكيف أن بعضهم أكل جوالين من الخبز، وكيف تحول الخمر في يده إلى (عرقسوس) وكيف فسق بزانية فتابت، وكيف شفى المريض بلمسة وهو لا يصلي ولا يصوم، إلى آخر تلك الترهات التي يبرأ منها الصالحون القائمون على قدم الشريعة.

فهل كان الشعراني هو رائد هذا الفكر الذي انتشر على هذه الصورة الواسعة؟ ليس هذا معقولاً، لأن هذه الأفكار بهذه الصورة من الانتشار ما هي إلا ميراث عصور طويلة من الخرافة ولا يسوغ لنا ان نصدق أن الشعراني على سبقه وعلمه وعمق تفكيره وابتكاره، وتشدده في السنة يؤمن بذلك أو يدعو إليه، وكيف يكون الشعراني على هذه الصورة المزرية من التفكير ثم يكون موضع احترام شيخ الإسلام زكريا الأنصاري مثلاً وهو الإمام الحجة في شريعة الإسلام؟!

ونكاد نقطع بأن الشعراني برىء كل البراءة مما نسب إليه من ضلالات. ونقطع كذلك بأن الشعراني في بداية سلوكه الصوفي قد استهواه الكشف والصفاء الروحي، وعدم الشعور بالكثافة الجسدية، وهي أمور لازمة لصفاء النفس وصدق مجاهدتها، فعبر عن هذا الاستهواء، ووصفه، وبين آثاره في العقل والوجدان، وأفصح عما يصحبه من رؤية جديدة لحقائق الأشياء، وإحساس عميق بمعين الأيمان، وكانت تلك المشاهد غريبة على بعض الأذهان، ولكن غربتها لا تعني بطلانها، فهي مشاهد لم نجربها، ولم ندركها، فالقول ببطلانها قول على غير أساس، ومن ثم يكون مرفوضاً.

إذن لماذا بقيت هذه المدسوسات كما هي في الكتب إلى الآن؟

والإجابة على هذا السؤال تدين الصوفية أنفسهم قبل أن تدين خصومهم. فالصوفية كما عرفتهم من قريب لا يخرجون عن هذه الأصناف:

١ ـ صنف من الصالحين المحققين الأتقياء الأخفياء الهاربين من الشهرة، والمؤثرين للعمل الصامت في تربية المريدين، ورعاية أحوالهم الروحية والنفسية في دقة ومنهجية بارعة

وهؤلاء لا يميلون إلى الكلام ولا إلى الكتابة، بل يعتبرون كتبهم هم مريديهم، ولا شيء وراء ذلك. ومع إجلالنا لهذا الصنف من الرجال فإننا لسنا معهم في السكوت على هذه الأوهام دون تنبيه منشور ومطبوع على المسلمين، لأن الكلمة من هؤلاء الشيوخ الأجلاء أبلغ في العمل من آلاف الكلمات تصدر عن غيرهم من الناس.

٢ ـ صنف آخر من الصالحين الأتقياء المحققين، ولكنهم لا يعملون في حقل التربية السلوكية، وإنما يعملون في حقل البحث والتأليف والتحقيق، ولكنهم يؤثرون السلامة بتسليم كل قول إلى من قاله، فلا شأن لهم بالنقد، وإنما هم مشغولون بنقد نفوسهم ومراقبتها وإذاعة ما أجمع عليه القوم دون ما اختلفوا فيه. ومع احترامنا الكبير لهؤلاء الشيوخ كذلك فإننا لا نوافقهم على مسلكهم هذا، ولا ننتقصهم من أجله.

٣ ـ قوم تصدروا لإرشاد السالكين على غير علم ولا خبرة بالنفوس، ولكن على حسن النية «والدروشة» والتواجد عند ذكر الأشياخ. والخوف من صدماتهم، وتسليم كل أحوالهم لهم حتى ولو كانت كبائر وموبقات، فلا حرج عندهم على فضل الله حتى ولو كان الإنسان أعمى البصيرة، مضطرب السيرة.

وهؤلاء من أخطر ما خلق الله على الإسلام على المريدين. فهم يستنزلون الرضوان على كل من روى في الكتب انه شيخ من أهل الله. ويؤلون ما ينسب إليهم من الكبائر تأويلاً فاسداً. وهم بحق يمثلون الفكر الصوفي المنحرف الذي قاومه الشعراني بكل ما أوتي من قوة وعزم.

من أجل هذا بقيت تلك الأوهام مسطورة في الكتب تحت تأثير الإهمال أو الخوف، وما كان الإهمال ولا الخوف من سنن الرسول ﷺ.

غرائب ومضحكات:

بقي أن نقرر حقيقتين هما غاية في الإضحاك يذيعهما أعداء الشعراني بما عهد فيهم من سلاطة وصفاقة وجهل:

أولاهما: أنهم يكشفون من خلال سلوكهم عن عداء شخصي، وليس عن خلاف في الرأي والمذهب. وذلك حينما يذيعون في المذياع من مساجدهم تلك الأوهام والمدسوسات التي أثبتنا بالدليل القاطع انها مدسوسة، يذيعونها منسوبة إلى «البعراني» لا الشعراني. وتلك واحدة تكشف عن تسفلاً لا حاجة لنا بالرد عليها بعد بيانها عارية كما هي.

أما الثانية: فإنهم يقولون في معرض تعداد مثالب الإمام الشعراني: وما الشعراني؟ انه رجل تتلمذ على (علي الخواص بائع العجوة). وهل يصلح بائع العجوة أستاذاً وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب؟

تلك نقيصة تهدم الرجل في أنظار هؤلاء الأغرار. وأقول: هؤلاء الأغرار، لأنهم لم يقرأوا شيئاً من علوم العارف الكبير «الشيخ علي الخواص» الذي كان بائعاً للعجوة، ثم حلاقاً، ثم عاملاً بضفائر الخوص. وتلك بقية الحرف التي عمل بها الخواص إن كانوا يجهلون.

لقد نقل الشعراني علوم الخواص في إجاباته عن أسئلة وجهها إليه وسجل تلك الإجابات في كتب مستقلة أو ضمن كتب ألفها الشعراني نفسه، وتلقفها القراء بالإعجاب والإكبار، ولو كان لهؤلاء الناقمين إثارة من صحة تركيب العقل لمجدوا الشعراني وعظموه، لأنه اكتشف لنا الإمام الخواص، وكشف لنا عن علومه ومعارفه السامية، وهو الأمي الحلاق بائع العجوة العامل في ضفائر الخوص.

ولو أن صحفياً أو باحثاً اكتشف مثله في عصرنا لاستحق أن يكون نجماً لامعاً بين عظماء العلماء، لا إنساناً يتهكم به المخربون.

ولو ان إنساناً قرأ جواباً عن سؤال واحد مما أجاب به الخواص تلميذه الشعراني لدارت رأسه، وسبح بحمد ربه الذي يضع حكمته حيث يشاء. فلئن عدها المخربون نقيصة فنحن نعدها من مفاخر الإمام الشعراني رضي الله عنه وأرضاه. وليس الخواص وحده العالم من بين الأميين، بل ان سيدي محمد وفا، والشيخ عبد العزيز الدباغ صاحب «الإبريز» وعجم بنت النفيس البغدادية التي شرحت المشاهد لابن عربي في مجلد مخطوط، كل أولئك أميون علماء كبار لهم في مجال المعرفة قدم راسخة.

هدانا الله جميعاً إلى ما يحب ويرضى، ووفقنا إلى طريق الرشاد انه سميع قريب مجيب...

كتاب أسرار أركان الإسلام

اسمه الأصلي «الفتح المبين في جملة من أسرار الدين». وهو من مخطوطات جامعة القاهرة تحت رقم (١٥٥١٥) وهو مكتوب بخط دقيق جداً يقرأ بصعوبة، وليس عليه تاريخ، ولكنه في الغالب مكتوب في القرن العاشر. ولم أعثر في مصر على نسخة أخرى منه، وقد

غيّرت اسمه كما هو مثبت «أسرار أركان الإسلام». وبهذا الاسم تطابق اسمه مع موضوعه تماماً، ولأن العناوين الطويلة لا تناسب العصر.

الجديد في الكتاب:

هذا الكتاب قد احتوى على عدد من النظرات الثاقبة، والنتائج الصحيحة والجديدة في تفسير شعائر الإسلام بحيث يمكن أن تكون بعضها حقائق إسلامية ذات مغزى بعيد في عالمية الإسلام وكونيته. وسنضرب أمثلة لهذه الحقائق الجديدة، وندع باقيها لألمعية القارىء لضيق المقام عن استيفائها.

أولا: أن إقامة أركان الإسلام الخمسة باللسان والجوارح والقلب والعقل، مع ملاحظة المعاني الدقيقة لمعانيها ملاحظة مقارنة لأدائها، ومحاولة تذوق تلك المعاني تذوقاً وجدانياً متواصلاً ودقيقاً في كل مرة ـ هذه الإقامة على هذه الصورة كفيلة بأن تجعل العابد مستقيماً على طريق الشريعة في الفروع الأخرى دون أي خلل أو زلل.

وهذا هو الحق، فإن أساس النجاح في سلوك طريق الشريعة الحق الذي لا نفاق فيه ولا غفلة هو في الحقيقة موقوف على أحكام واتقان (لا إله إلا الله محمد رسول الله). و(لا حول ولا قوة إلا بالله). أي: مراقبة معنى تفرد الله تعالى بالخلق والأمر في جميع الحركات والسكنات، التي يمارسها الإنسان مع نفسه ومع الآخرين... ومن هنا يرسخ إيمان المؤمن بالعدل الإلهي في الأمر والخلق والحكم والقدر مهما كان مضاداً لهوى الإنسان، فلا يحاول العدوان على الغير في النفس أو المال أو العرض لتحقيق كسب خاص لأنه مؤمن بخير القضاء والقدر على أي حال، ولا يهمل رعاية الحدود لأنه يراها وحدها هي العدل، ويفيض قلبه حباً للآخرين، وعوناً لهم، لأنه لا يرى لنفسه ملكاً، بل يرى الله فضلاً يطمح إليه وهو يلتزم بالمندوب التزامه بالفريضة.

وأداء الأركان الخمسة هو طريق الوصول إلى هذه المنزلة، فالشهادتان هما أفضل الذكر، ندب الإسلام إلى ترديدهما نافلة قدر الطاقة مع الفهم والذوق، والصلوات الخمس مكررة كل يوم لتمكن الشهادتين من عرى القلب، والصوم من كل عام شهراً تدريب لملكة الذوق الروحاني لمعاني العبادات وأسرارها، والحج خروج من الدنيا إلى الآخرة على طريق الرمز الذي زخرت به المناسك، والزكاة والصدقات برهان الإخلاص في العمل كما ورد «الصدقة برهان». ومن هنا عنى الشعراني بمعاني وأسرار الأركان الخمسة دون غيرها من الفروع الشرعية الأخرى، لأنها تؤدي إلى المراد كما يقول.

ثانياً: يقرر الشعراني: أن الوجود كله، والكائنات كلها متعبدة لله تعالى بالصلاة

والزكاة والصوم، وسائر شرائع الإسلام الأخرى. ويستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]. وبقوله تعالى: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٥].

فإذا كان الدين عند الله هو الإسلام، وكان من في السموات والأرض مسلمين لله، فإن الكائنات كلها متعبدة بشرائع الإسلام. هذا منطق صحيح، ولكن دليل تحققه يحتاج إلى فطنة فالصلاة فيها السجود والتسبيح، والله تعالى يقول: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ٨٣]. ويقول: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]. فالكون كله يصلي بناء على أخبار الله تعالى، وليس هناك دليل مادي ملموس على صلاة الأكوان لله لأن الصلاة قولاً وعملاً لا نفقهها نحن كما حكم الله سبحانه.

أما الزكاة فلأنها إخراج منفقه عن الملك إلى ملك الغير فلا بد أن تكون واضحة في الكائنات، ويقول الشعراني في بيانها: «وإذا نظرت إلى الأرض التي هي أقرب الأشياء إليك وجدتها تعطي أقرب الخلق إليها، وهم الذين على ظهرها جميع بركاتها لا تبخل عليهم بشيء عندها في فصول العام كلها، وكذلك النبات يعطي ما عنده تشبهاً بأصله، وكذلك جميع الأشجار، وكذلك الحيوان، وكذلك البحر والسموات والأفلاك والشمس والقمر والنجوم، والكل متعاون بعضه مع بعض، لا يدخر شيئاً من قوته وما عنده من طاعة الله».

وفي الصوم يقول الشعراني: «اعلم أن الصوم عام في جميع الموجودات، قد شملها جميعاً، فالصوم من معانيه: إمساك جميع الموجودات وتقييدها عن الخروج عن وظائفها التي قيدت بها، والموجودات كلها قد لزمت ما قيّدت به وأمرت به. فالثقيل قد أمسك في مكانه لا ينتقل، والخفيف لا يصعد من مكانه... فصوم العالم: ضبطه نفسه، وامساكه ذاته، بانحيازه إلى بارئه، خضوعاً لحكم الأمر طوعاً وكرهاً، والانقباض عن ان يسترقه شيء غير الله تعالى، وهذا علم في الموجودات شرعاً وكوناً وحالاً ومقالاً إلا الثقلين فإنهم خالفوا شرعاً لا كوناً، ولهذا فالعتقاء من النار في رمضان هم الذين انقطعوا عن أسباب استرقاق الهوى للنفس».

ويخلص الشعراني من ذلك: «إلى ان تارك الصلاة والزكاة والصوم مخالف لنظام الكون، خارق للحكمة وقانون الفطرة، ولهذا ورد الأمر بقتل تارك الصلاة عمداً، وقتال الجماعة المانعة للزكاة، لأنهما قوام حفظ العقيدة في النفس وفي الغير بحماية الفقير من الانحراف في سبيل العيش.

هذا فهم استقل به الشعراني ولم يسبق إليه على هذا التفريع الواعي والعميق، يصل

بنا إلى الدلائل الحاسمة على كونية الإسلام وعالميته، وأن العالمية وسيلة للوصول إلى فقه النظام الكوني للإسلام، كما أن الأخوة الإيمانية وسيلة إلى نظام الأخوة الإنسانية، ولهذا وردت السنة بحسن الخلق والرحمة للحيوان والطير والحشرات والزرع وكل ذي حياة في الكائنات إشارة إلى وجوب انسجام المسلم مع الكائنات كلها ومع الكون كله، ابتداء من توافقه مع مراد ربه في الصلاة والزكاة والصوم... وسيرى القارىء كثيراً من الأفكار المبتكرة عند الشعراني، كما هو واضح من صلة الزكاة بطهارة البدن والروح، وصلة منعها بنوع العقوبة المقرّرة على مانعها... إلى آخر ما هو مبثوث في هذا المختصر العجيب الزاخر بالمعاني العالية والشمولية لشريعة الإسلام.

***

منهج التحقيق

١ ـ نسخنا الكتاب ونسقناه على الصورة التي يراها القارىء.

٢ ـ وضعنا العناوين الجانبية تسهيلاً للقارىء، وبياناً لعناصر البحث.

٣ ـ غيرنا اسمه إلى اسم متطابق مع محتواه، وملائم للعقل الجديد.

٤ ـ خرّجنا الأحاديث وآيات القرآن الكريم.

٥ ـ علقنا على بعض المواضيع والأفكار التي تحتاج إلى مزيد ايضاح.

٦ ـ كتبنا الدراسة المقدمة للكتاب، وهدفنا منها إلى بيان قيمة الشعراني في تاريخ الفكر الديني، ومدى تفاعله مع الإسلام، وتوسيع معناه، وعنايته ببناء الإنسان المسلم الذي هو حجر الزاوية في بناء مجتمع إسلامي أصيل.

هذا ونسأل الله أن ينفع به الناس في زمان هم أحوج فيه إلى العودة إلى ما كان عليه الصحابة والسلف الأول، وأحوج إلى البعد عن الثرثرة التي تهدم من الإنسان ما بناه الإسلام. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً دائماً بدوام ملك الله.

عبد القادر أحمد عطا

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله

قال الشيخ الإمام العارف بالله تعالى، مولانا وقدوتنا إلى الله تعالى الشيخ عبد الوهاب بن علي الشعراني الأنصاري، عفا الله عنه وعن والديه، وعن جميع المسلمين:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وعلى آلهم وصحبهم أجمعين . . . وبعد . . .

فهذه أسرار وآداب يحتاج إلى مراعاتها كل مريد لطريق الحق صحت منه الإرادة، جعلتها مقصورة على ذكر أسرار أركان الدين ـ أعني الخمسة ـ التي هي: شهادة ألا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، وإنما ذكرت آداب الوضوء والغسل لأنها كالجزء من الصلاة، لا تصح إلا بأحدهما.

وفي الحديث: «الوضوء شطر الإيمان»(١) أي: لأن الإيمان قسمان: قسم إذا فعله العبد يؤهل للقرب من حضرة الله عز وجل، وقسم إذا فعله أذن له بالاقتراب. فالقسم الأول هو طهارة الجسم فقط، والقسم الثاني هو الطهارة للجسم والقلب معاً.

ثم ان أهم مراتب الداخل إلى حضرة القرب من الله في الصفات: أن يكون على أخلاق أولي العزم من الرسل، ثم أخلاق الأنبياء، لأنهم أهل حضرة القرب من الله عز وجل. فإن تخلقت يا أخي بأخلاقهم فأبشر، وإلا فأنت مطرود إلى حظيرة الدواب الصم البكم الذين لا يعقلون، نسأل الله تعالى اللطف.

وإنما قصرنا الآداب والأسرار على أركان الإسلام دون غيرها من الزوائد الواردة في الشريعة، لأن هذه الخمسة هي الأساس الذي تبنى عليه سائر الأحكام، فإذا أحكم المريد آدابها، وراعى أسرارها، ترقى منها إلى فروع الشريعة وتوابعها(٢)، وان لم يحكم آدابها فهو

---

(١) أخرجه مسلم والنسائي عن أبي مالك الأشعري.

(٢) انظر الدراسة للمزيد من الفكرة.

واقف، ولو عبد الله إلى قيام الساعة، كما هو مشاهد من العباد ونحوهم ممن يدعي سلوك طريق العارفين على غير أساس[1].

فيجب على كل مريد مطالعة هذه الآداب، وملازمة ملاحظتها، في حال عبادته. ولو حفظ عباراتها عن ظهر قلبه كان ذلك أعون له على العمل، لكونه يستحضرها في قلبه، فكلما باشر عملاً يدله فهم العبارة على العمل بها، بخلاف ما إذا كانت عنده في كتاب لا يقرأه، فلا ينتبه منها إلى شيء من الآداب، إلا الآداب الظاهرة، اكتفاء بما ألفه الناس فيها من الكتب المنتشرة بين أظهر الناس، بخلاف الآداب الباطنة، فقليل من الناس من صنف فيها، لعزة العارفين بها، وعزة العالمين.

فهذا كان سبب تألفينا لهذه الرسالة، فاعلم ذلك. وسميتها «الفتح المبين في جملة من أسرار الدين». نفع الله بها مؤلفها وسامعها، والناظر فيها، انه سميع مجيب، والحمد لله رب العالمين.

ولنشرع في ذكر أركان الإسلام مرتبة كما هي، وكما ذكرها رسول الله ﷺ في الحديث فنقول:

أسرار شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله

اعلم يا أخي ان هذه الشهادة هي مفتاح الإسلام، لا يدخل أحد إليه إلا من قالها بلسانه، مصدقاً بها قلبه، فإن لم يكن قلبه مصدقاً بها، فهو مع المنافقين في الدرك الأسفل من النار كما سيأتي إيضاحه.

شهادة الله لنفسه ومدلولها:

ثم لا يخفى أن الله تعالى غني عن شهادة عباده له بالألوهية كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِالْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨] فأخبرنا تعالى بأنه الموحد نفسه بنفسه، وعباده شاهدون على شهادته لنفسه على سبيل الاعتراف والإذعان.

وإنما قال الله تعالى: ﴿وأولوا العلم﴾ ولم يقل: وأولوا الإيمان، لأن شهادته تعالى

---

(١) لا يغفل الشعراني عن التنديد بالأدعياء والجهلة في كل مناسبة.

لنفسه بالوحدانية ما هي عن أمر وخبر[1]، فتكون إيماناً، ولهذا كان الشاهد إذا لم يكن عالماً بما شهد له لم تصح شهادته.

ثم ان الله تعالى عطف الملائكة وأولي العلم على نفسه بالواو، وهو حرف يقتضي الاشتراك، ولا اشتراك هنا إلا في الشهادة قطعاً، حين وجدوا أن الافتتاح لشهادته تعالى، فكانت شهادتهم كالحكاية لشهادته عز وجل فافهم.

شهادة أولي العلم وشهادة أولي الإيمان:

ثم إن الله تعالى إنما أضافهم إلى العلم لا إلى الإيمان ليعلمنا: أن المراد هو من حصل له التوحيد من طريق العلم النظري والضروري لا من طريق الخبر. كأن الله تعالى يقول: وشهدت الملائكة بتوحيدي بالعلم الضروري الحاصل لهم من التجلي الإلهي الذي أفادهم العلم، وقام لهم مقام النظر الصحيح في الأدلة، فشهدت لي بالتوحيد كما شهدت لنفسي، وشهد أولو العلم بالنظر العقلي الذي جعلته في عبادي[2] ويؤيد ذلك قوله ﷺ: «من مات وهو يعلم ألا إله إلا الله دخل الجنة»[3].

وذلك لأن الإيمان موقوف على الخبر، وقد كان لله تعالى عباد موحدون علماء بوجود الله وحده، وذلك في زمن الفترات، ومنهم: قس بن ساعدة[4]، وزيد بن عمرو بن نفيل[5]، فهم شهداء الله، مع أنهم غير مؤمنين، إذ لم يكن في زمنهم رسول ولا شرع يستضاء به، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، إذ الإيمان

---

(١) يعني: لم يخبره غيره بالوحدانية ويأمره بالنطق بها كما هو الحال في العباد حين يأتيهم الرسل، وإنما شهد لنفسه بنفسه من نفسه.

(٢) معنى هذا أن شهادة الله تعالى لنفسه عبارة عن علمه بنفسه وبوحدانيته وسائر صفاته، وليست عبارة عن إيمانه بنفسه كما سبق. فاقتضى الأسلوب القرآني المعجز أن يكون المعطوف على الله تعالى هنا هم أهل العلم الضروري من الملائكة، وأهل العلم النظري من الناس. ولو عطف أهل الإيمان على لفظ الجلالة لاختل المعنى، لعدم الاشتراك بين الله وعبادته في شهادته لنفسه إلا من جهة العلم فقط.

(٣) أخرجه مسلم والنسائي وأبو داود وأحمد عن جمع كبير من الصحابة، وقد عدوه من المتواتر ولفظه (يشهد). ورواية (يعلم) رواها الترمذي وأبو داود عن أبي بكرة. وهذا الحديث منسوخ بما نزل من الأمر والنهي. وقيل: غير منسوخ ومعناه من شهد بها تائباً ومات على توبته.

(٤) قس بن ساعدة خطيب جاهلي كان يشير الى وجود الله في خطبه.

(٥) زيد بن عمرو بن نفيل كان يعبد الله على ما بقي من دين الخليل ولم يأكل المحرمات قبل الإسلام.

لا يصح إلا بعد مجيء الرسول، والرسول لا يثبت أنه من عند الله حتى يعلم الناظر أن ثم إلهاً، وأنه إله واحد، لقول رسول الله ﷺ لعدي بن حاتم: «قل لا إله إلا الله عن أمر الله»[1]. فيسمى حينئذ مؤمناً، فإن رسول الله ﷺ أوجب عليه أن يقولها وقد كان عالماً بها، ومخبراً في نفسه بالتلفظ بها، فهذه مرتبة العلم بتوحيد الله تعالى من حيث الدليل.

فمن مات وهو يعلم ألا إله إلا الله دخل الجنة بلا شك ولا ريب، وهو من السعداء، وإن كان من أهل الفترات، فيبعثه الله تعالى أمة وحده، فلا يبعثه تابعاً لأنه ليس بمؤمن، ولا متبوعاً لأنه ليس برسول من عند الله، بل هو عالم بالله تعالى بواسطة ما علم من الكوائن الحادثة في العالم بأي وجه علمها، والنار بذاتها لا تقبل تخليد موحد لله تعالى أبداً.

وإنما لم يقل في الحديث المتقدم: من مات وهو يعلم أن محمداً رسول الله دخل الجنة، لتضمن الشهادة لله تعالى بالتوحيد الشهادة لسيدنا محمد ﷺ بالرسالة، مع أنها جاءت في أحاديث أخر.

وإيضاح ذلك: أن القائل: بلا إله إلا الله لا يكون مؤمناً إلا إذا قالها لقول رسول الله ﷺ كما مر تقريره، فإذا قالها لذلك فهو عين إثبات رسالته، فلما تضمنت هذه الكلمة الخاصة الشهادة بالرسالة لم يقل: ويعلم أن محمداً رسول الله، وكذلك لم يذكرها أيضاً في حديث: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها ـ يعني عن أمري ـ عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله»[2]، فلم يذكر محمداً رسول الله.

وقال رسول الله ﷺ في هذا الحديث: «يقولوا» ولم يقل: يعلموا، لأن في الناس العلماء بالله، فأمرهم أن يقولوا ذلك كغيرهم، ولم يكتف بما عندهم من العلم. فكان ذلك إعلاماً للعلماء بالله تعالى: أن التلفظ بالشهادتين عليهم واجب، وأنه العاصم من سفك الدماء، فالحكم هنا للقول لا للعلم، والحكم يوم تبلى السرائر للعلم لا للفعل، فلذلك أمر بها هنا العالم والمؤمن، والمنافق الذي ليس بعالم ولا مؤمن، وذلك قال في الحديث: «وحسابهم على الله» يعني من أجل المنافق ومن ترتب عليه حق فلم يؤخذ منه. وأما في الدنيا فمن أجل الحدود الموضوعة، فإن قول لا إله إلا الله لا يسقطها، لا في الدنيا ولا في

---

(١) متفق عليه من حديث أبي بكر رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه.

الآخِرة، ولذلك يقول الرسل يوم يجمعهم الله: «لا علم لنا»، أي: لا نطلع على علم القلوب، ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩].

فاعلم أن السعادة في الدارين لمن شهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، مصدقاً بها قلبه، ناطقاً بها لسانه، وأن الشقاء في الدارين للمنافق والجاحد، لأن المنافق يقولها من غير ايمان بقلبه ولا اعتقاد، إنما يقولها تقليداً، والجاحد لا يقولها لقول رسول الله ﷺ وأمره، مع علمه بأنه رسول الله من كتابه، لا من دليله العقلي، والله تعالى أعلم.

أقسام العلماء بالله:

وينقسم غير المؤمنين بلا إله إلا الله بأن قالوها لغير قول الشارع وهم العلماء بالله إلى خمسة أقسام:

الأول: أن يقولها بنفسه، بأن تجلت له نفسه، فرأى وجوده مستمداً من غيره، فأعطته رؤية نفسه أن يقول: لا إله إلا الله، وهو التوحيد الذاتي الذي أشار إليه بعض المحققين.

الثاني: أن يقولها بنعته ووصفه، فإن نعته: العلم بتوحيد الله تعالى وأحديته، فنطقه بها علم، والفرق بينه وبين الأول: أن الأول عن شهود قلبي، والثاني عن شهود علمي[1]، والوجود قد يكون عن شهود وقد لا يكون.

الثالث: أن يقول: لا إله إلا الله بربه، لأنه رأى الحق سر الوجود[2].

الرابع: أن يقولها بنعت ربه، بأن رأى الحق تعالى من حيث أحديته وذاته ما هو مسمى الرب.

الخامس: أن يقولها بحاله، بأن شهد استناده في أمور كلها إلى الله تعالى بعد أن كان

---

(١) من النوع الثاني كثير من علماء الطبيعة والكيمياء والأحياء والفلك، يصلون الى العلم بوجود الله من خلال تجاربهم العلمية. ومن القدماء زمن الفترات: المتأملون في الكون كما يظهر من خطبة قس ابن ساعدة. ومن النوع الأول: المرتاضون وأهل الخلوات قديماً و حديثاً.

(٢) هذا هو معنى الآية «ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها» (هود: ٥٦) وقول: «الذي أنطق كل شيء» (فصلت: ٢١). فقد علم أن الحق هو الفاعل، وهو المختار، فنطق بالتوحيد لهذا المشهد، وهو من مشاهد الفكر والوهم لا يدرك الا بالتأمل في الخلق. انظر (توحيد الأفعال من مجموع رسائل النابلسي ورقة ١٨٥ ـ خط الظاهرية).

استند إلى غيره فلم يجد منه قضاء حاجته، وسدت في وجهه الأبواب، فرجع إلى الله اضطراراً فقال: لا إله إلا الله.

وهؤلاء كلهم سعداء، مع أنه لا يتصف أحد منهم بإيمان، لأنهم بما فيهم من قالها عن أمر الشارع، بخلاف من أوجب عليه الشارع أن يقولها، وحكم عليه بذلك، فإنها لا تكون قربة إلا بذلك، وربما يقولها معلماً أو متعلماً[1].

معنى النفي والإثبات

ثم اعلم أن كلمة لا إله إلا الله نفي وإثبات، والنفي لا بد أن يرد على ثابت فينفيه، فإن ورد على ما ليس بثابت ـ وهو النفي ـ أثبته، لأن ورود النفي على النفي إثبات كما قالوا، فنفى عدم الوجود وجود.

والتحقيق الذي قال به الأشياخ: أنه لا نفي ولا إثبات في الحقيقة، لأنه ما يثبت لغير الله تعالى ألوهية فينفيها النافي، ولا تغيب عنه الألوهية فيثبتها، وإنما يقول العبد ذلك امتثالاً لأمر الله تعالى.

وقال بعضهم: النفي صحيح، وهو وارد على أعيان من المخلوقات قيل فيها: «انها آلهة، ونسبت الألوهية إليها، فينفيها النافي وإن لم يعتقدها هو، ولهذا تعجب من تعجب من المشركين لما دعاهم الرسول ﷺ إلى الإلة الواحد. فورد النفي على هذه النسبة الثابتة عندهم لتلك الآلهة، لا على نفس الألوهية.

مراتب التوحيد:

ثم اعلم يا أخي أن التوحيد في نفسه ينقسم إلى ثلاث مراتب: توحيد الأفعال، وتوحيد الصفات، وتوحيد الذات.

فالمرتبة الأولى: توحيد الأفعال، وهي: إضافة الأفعال والمعقولات كلها إلى الله، وأنه خالق الذرة وأفعالها، والفيل وأفعاله، والعرش وأفعاله، وخالق جميع الأعيان الموجودة وأفعالها على كثرتها واختلافها ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] و﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾. [النساء: ٧٨]. كما هو مبسوط في كتب السنة.

---

(١) إن قالها معلماً أو متعلماً بأمر الشارع فهي قربة أيضاً.

المرتبة الثانية: توحيد الصفات، وذلك قلما تبينه العبارة، لأنه من علم القلوب، ومن ظن أن حقيقة علمه مستوفاة في الكتب والصحف فهو لم يشم شيئاً من مقام المعرفة، فكيف يكون ذلك مستوفى وسيد المرسلين قد أظهر العجز عنه وقال: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك».

ولولا أن الله تعالى امتن على عباده بأن أوجد لهم في الوجود من كل معنى من أسمائه وصفاته صفات كثيرة خلقهم عليها، وأمرهم بالتخلق بها لما فهموا أبداً معنى صفات الحق الخالق سبحانه وتعالى، لأن أمر الله أمر عظيم، لا تناله الألسنة، فأوجد الله السمع والبصر والعلم والحياة والقدرة والإرادة والكلام والرأفة والرحمة والجود والسخاء والسيادة والملك والقوة والعفو والإحسان والطهارة وغير ذلك من الصفات، وأوجد سبحانه علم معاني هذه الصفات معان يستدل بها عليه، ولولا ذلك لما عرف الله تعالى. فمن لم يذق من نفسه هذا التوحيد فما وحد الله تعالى التوحيد المطلوب.

المرتبة الثالثة: توحيد الذات، واعلم يا أخي أن هذا المقام في التوحيد قليل وجوده، لا يوجد إلا عند أفراد من كبار العارفين، إلا أن من ترقى من توحيد الأفعال إلى توحيد الصفات يرجى له الوقوع في العلم به إن شاء الله. ومن تكلف طلبه من غير هذا الطريق وقع في التشبيه والإلحاد، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في ذاته»[1]. وإنما الطريق إلى هذا المقام بالتوفيق الإلهي، وإمعان النظر في الأفعال.

فإن من أحكم النظر في الأفعال أوصلته الأفعال إلى الصفات، فتتجلى له معاني الصفات القائمة بالذات، لأن الأفعال صادرة عن الصفات، وفي الخبر: «ما تجلى الله لشيء إلا خشع له». وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]. وقال ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه»[2]. وقال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فهذا علمه بنفسه ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾. أي: شهدت قيامه بالملك كله، يعطي كل شيء من الملك قسطه وحظه من كل شيء. فهذا مقام مشاهدة الصفات قائمة بالأفعال، وموجدة لها على الدوام، وقد حجب الذات بالصفات، وحجب الصفات بالأفعال.

وكما أنه تعالى لا يتجلى لشيء إلا خشع له، كذلك لا يتجلى لقلب إلا أحبه ذلك العبد ضرورة، لا يقدر على الامتناع من حبه أبداً، فعلى قدر الإحسان إليه بالتجلي يكون

---

(١) أخرجه الطبراني عن واثلة بن الأسقع في الأوسط.

(٢) أخرجه الشيخان.

الحب، وعلى قدر الحب يكون الاستغراق في مشاهدة الموصوف بالأسماء الحسنى الصادر عنه كل حسن وجمال.

مقامات الناس في التوحيد:

والناس في التوحيد على خمسة مقامات. العامة في أدنى تلك المقامات، والخاصة في أعلاها، والناس فيما بين ذلك على قدر قبولهم، وكل أحد إذا تفهم هذه المقامات المذكورة ميز مقامه منها، وحيث هو من جملتها.

وأصحاب المقام الأول هم: الذين عقدوا بقلوبهم على التوحيد، ولم يشتغلوا بالبحث، وصدّقوا بما سمعوا، وهم الجم الغفير من الناس، وحبهم وخوفهم على قدر ما سمعوا من أسمائه، وذكر لهم من وعده ووعيده.

وأصحاب المقام الثاني هم: الذين سمعوا مثل ما سمع أهل المقام الأول، وصدقوا بما صدقوا به، وزادوا بالبحث والنظر في المخلوقات، واستدلوا بالموجودات على الموجد. وأكثر أهل علم الكلام من هذا المقام. ومثلهم مثل قول القائل: «ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله بعده»، لأنه رأى الشيء فاستدل به على موجده.

وأصحاب المقام الثالث هم: الذين ترقوا عن رؤية الموجودات إلى رؤية الإيجاد، ومن مشاهدة المصنوع إلى مشاهدة الصنع، فإن الأشياء كلها لما خلقها الباري عز وجل، وكملت صور الموجودات، لم يكن لها مقام بأنفسها، فهي مفتقرة إلى الإيجاد على الدوام، ولو تخلى الأمداد بالإيجاد عنها طرفة عين لتلاشت، ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٨٨].

وأكثر الناس يدعي فهم الأيجاد وهم عنه بمعزل، فكيف بما فوقه من المقامات، وهؤلاء هم أهل المراقبة، ومثل أهل هذا المقام مثل قول القائل: «ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله معه». ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ بالإيجاد ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] لأنه لا يتحرك في الوجود شيء إلا وهو محركه.

وأصحاب المقام الرابع هم: الذين ازدادات مراقبتهم، وقربت مشاهدتهم، فرأوا الأشياء بالله، ونظروا به إليها. ومثلهم مثل قول القائل: «ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله قبله». وفيهم قال بعض العارفين: أثبت الله للعامة المخلوق فأثبتوا به الخالق. وأثبت للخاصة نفسه فأثبتوا به المخلوق. وهم أهل الجمع، شاهدوا الملك كله فعلاً واحداً قام به الواحد، فرأوا الحادثات كلها بالله.

وهؤلاء كلهم ـ أعني أهل المقامات الأربعة ـ وإن اختلفت أحوالهم فهم مع الأفعال، يشاهدها كل واحد منهم على قدر ما قسم له من القضاء.

وأما أهل المقام الخامس فهم: «الغائبون عن الفعل كله، وهم في مقام التوحيد الحقيقي، ولا يكون ذلك إلا بعد المحبة، والاستغراق في ذكر المحبوب، والطريق إلى ذلك: تصفية القلوب من المحبوبات الدنيوية، وجلاؤها بالذكر الدائم، والإقبال اللازم، حتى تعود كالمرآة المجلوة الصافية، فعند ذلك يتجلى المحبوب على قدر الحب، وهذا هو علم توحيد الرب نفسه بنفسه ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨] بإشهاد العبد ذلك.

* * *

آداب الوضوء وأسراره

اعلم يا أخي أن الوضوء هو الطهارة الصغرى عن الحدث، وإنما سميت صغرى لأنها في جوارح الجسد وأطرافه من كل ناحية، وذلك تخفيف علينا من الله على عوائد فضله. فلو كلف العبد بغسل جميع بدنه كلما أحدث لكان كالتكليف بما لا يطاق، فمن هنا سن الشارع الغسل لكل يوم جمعة، حتى لا يموت البدن من المخالفات والشهوات، فالحمد لله رب العالمين.

الوضوء طهارة للجسد كله:

غير أن ههنا دقيقة، وهي: أن في تطهير أعضاء الجوارح من كل ناحية تطهيراً لجملته من الحدث الخارج عنه. لأنك إذا قدرت العبد بيديه ورجليه ورأسه كان كالدائرة المحيطة. وفي تطهير خارج الدائرة من كل ناحية تطهير لجميعها. فلو ألقيت ضابطاً في وسط بطن الإنسان بعد أن يمد يديه ورجليه وعنقه وأدرت الضابط وجدته دائرة كما ذكرنا. ومن هذه الجوارح المحيطة بالجسد تدخل الذنوب والمخالفات إلى الجسد كله، وفي تطهيرها إخراج المخالفات والحدث عن جميع البدن.

ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «الطهور شطر الإيمان»، يعني الوضوء. وقد بينا فيما سبق معنى كونه شطر الإيمان، وأن الإيمان قسمان، قسم يؤهل العبد للقرب من حضرة الله تعالى، وقسم يؤهله للدخول. فالذي يقربه هو الوضوء، والذي يدخله هو سائر الآداب الباطنة فافهم.

ويسمى الوضوء الذي هو غسل الجوارح: مقام الإسلام، ومراعاة آدابه الباطنة من

التوبة، وزوال ما نهى الله عنه: مقام الإيمان. كما يدل عليه قوله ﷺ: «إذا توضأ المسلم ـ أو قال: المؤمن ـ فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع الماء ـ أو مع آخر قطر الماء ـ وإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة بطشتها يداه مع الماء ـ أو مع آخر قطر الماء ـ وإذا مسح أذنيه خرجت خطاياه من أذنيه مع الماء ـ أو مع آخر قطر الماء ـ فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء ـ أو مع آخر قطر الماء ـ حتى يخرج نقياً من الذنوب»[1].

وإنما لم يذكر ﷺ الفرج وإن كان من الأعضاء التي يعسر حفظها عما لا ينبغي ذكره حياء منه ﷺ، وإلا فقياسه كذلك. ولم يذكر في هذه الرواية مسح الرأس لأنها سقطت منها كما في صحيح مسلم وغيره. وقد ورد في مسند الإمام (سنيد) أن رسول الله ﷺ قال: «ان العبد إذا مسح رأسه في الوضوء غفر الله له بكل شعرة ذنباً جناه ـ أو عمله ـ فإن لم يكن له ذنب رفعه الله بكل شعرة درجة»[2].

الوضوء وأكل آدم من الشجرة

وقد ورد في الأخبار: أن أصل الوضوء من أكل الشجرة التي أكل منها أبونا آدم، وأصل الحدث الذي يوجب الوضوء إنما سببه الأكل وما تولد من شهوة الأكل، فبقي الأمر على أصله، فمتى أحدث الإنسان وجب عليه الوضوء، والطهارة من كل ما تولد في الجوارح من المنهيات التي توجب الحساب في الآخرة.

وتأمل من لم يأكل من الملائكة ومن شاء الله، لا يصح منهم وقوع شيء من نواقض الوضوء التي ذكرها أئمة الشريعة، فإن من لم يأكل لا يخرج منه بول ولا غائط ولا ريح ولا دم، ولا ينام، ولا يغمى عليه، ولا يجن، ولا يشتهي النساء، ولا يعصي، ولا يكفر، ولا يبرص ولا يجذم، ولا يضحك قهقهة، ولا غير ذلك مما هو مشهور في مذاهب الصحابة ومن بعدهم، فتأمل[3].

فيجب على المسلم المريد للحق إذا أراد أن يتوضأ: أن ينظر بالعقل الروحاني إلى أوصاف الله تعالى، ويتذكر كلما توضأ: بين يدي من يريد أن يقف، فيتطهر بقصد الوقوف

---

(١) أخرجه مسلم عن أبي أمامة .

(٢) لم نعثر على مسند سنيد بن عبد الرحمن . ولكن رواية مسح الرأس أخرجها الطبراني عن أبي أمامة مع اختلاف يسير في اللفظ . والبزار عن عثمان وفيه اختلاف يسير أيضاً .

(٣) نقل محمد بن المبارك هذا المعنى عن شيخه عبد العزيز الدباغ ولم يشر الى مصدره من كتاب الشعراني هذا ولا للشعراني نفسه .

بين يديه، ويتصف بأوصاف الطاهر النقي عن الأكل والشرب الموجبان للحدث الذي كان سبباً في وجوب الوضوء، ليصلح للوقوف بين يدي الله تعالى نقياً طاهراً.

ومن هنا نهى الشارع عن الأكل والشرب للمصلي، ليشاكل من يخاطبه ويناجيه، وإلا لم يؤذن له في الدخول إذا توضأ على غفلة، ولم يراع هذه المعاني، نعم، من توضأ على غفلة عن هذه المعاني فوضوءه صحيح، ولكنه لا يرتقي به في درجات العلم والمعرفة، ولم يكلف الله العامة بما يكلف به الخاصة.

تطهير مواضع سريان الطعام

ثم اعلم يا أخي أن سبب أكل الشجرة إنما كان بوسوسة إبليس، فوجب تطهير كل ما سرت فيه الأكلة التي كان سببها إبليس، فإنه قذر تولد من أغوائه النجس، وذكر الله وكلامه وتسبيحه وتهليله طيب طاهر، والوقوف بين يديه لا يكون إلا في موضع طاهر، وبدن وثوب طاهر.

وكذلك السواك في الفم إنما هو لإزالة الرائحة الكريهة التي نشأت عن الأكل، ليتنظف لذكر الله، وكذلك الاستحداد[1] وتقليم الأظافر، والختان وغيرها، إنما ورد الأمر لكونها محلاً للقذر، ومقاعد للشيطان، كما ورد[2]، فوجب تطهيرها وتنظيفها.

الإيمان والطهارة بالماء:

والدين كله مبني على الطهارة الحسية والمعنوية، فإذا فهمت يا أخي هذه المعاني الظاهرة والباطنة، وعملت بها، اتضح لك كيف يكون الوضوء شطر الإيمان كما مر أول الباب، وصلحت لدخول حضرة الله تعالى، فإن الطهارة لا تكون حقيقية إلا إذا تطهرت من الأحداث والأوساخ ظاهراً وباطناً، حتى تكون متشبهاً بالملائكة عباد السموات، فإنهم منزهون عن سائر المخالفات، عابدون لربهم بتلك الطهارة دائماً سرمداً، لا يبرحون قط من مقام الإحسان.

وإنما جعل الشارع الطهارة بالماء دون سائر المائعات لما في الماء من الروحانية التي بها حياة كل شيء، وإنما كان التراب يليه في المرتبة لأنه أقرب الأشياء إلى الماء، فأمرنا

---

(١) الاستحداد هو : حلق العانة .

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط عن أبي عبيدة .

بالانتقال إليه عند فقد الماء، أو تعذر استعماله. ويليه في الرتبة الرمل، ثم ما كان من طبقات الأرض. وكل ما كان أقوى في الروحانية كان مقدماً في الاستعمال، فليس للمتيمم إذا فقد الماء أن يتيمم بالحجر مع وجود التراب، فافهم.

واعلم أنه كلما كانت الأعضاء أقبح عصياناً كان صاحبها مطالباً بغسلها بأعلا المياه روحانية ونظافة، لأن ثم من المعاصي ما يميت العضو، ومنها ما يضعفه، ومنها ما يفتره ويثقله عن العبادة. فالذي يميته الكبائر، مثل الزنا، واللواط، وشرب الخمر، وأكل الرشا، وسوء الظن بالخلق، والكبر، والرياء، والإعجاب، ومحبة الدنيا، وغير ذلك. والذي يضعفه الصغائر، كالنظر إلى ما لا يحل، وسرقة لقمة، وغمزة، ولمزة، والبول في الماء الراكد والطرقات، وغير ذلك. والذي يفتره المكروهات التي نص عليها الشارع.

وضابط الطهارة الشرعية: أن يكون الماء نظيفاً بحيث ينبت الزرع، فإن ضعف جداً بحيث لا ينبت الزرع كما في الخرارات المارة على الفرث والدم والقذارة لم تصح به الطهارة إجماعاً.

والإنسان بصير على نفسه في كل وضوء، فيعلم ما جناه بين ذلك الوضوء وبين الوضوء الذي قبله من كبائر أو صغائر أو مكروهات. فاعلم أنه كلما صغرت معاصي العضو خفف عنه في أوصاف الماء وكلما كبرت معاصي العضو شدد عليه في أوصاف الماء، وأمر باستعمال أقواها روحانية، كمياه الأنهار والآبار ونحو ذلك مما لم تمسه الأيدي قبل ذلك المتوضىء. فإن استعمل في ضعيف المعاصي أقوى المياه روحانية كان أفضل، وان استعمل فاعل المباح أقوى المياه فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، لأن قلب هذا يكون نوراً على نور، والله غفور رحيم.

* * *

آداب الغسل من الجنابة

الجنابة بعد عن صفات الله:

اعلم يا أخي ـ رحمك الله تعالى ـ أن الجنابة في نفسها: بعد وتنح عن حضرة صفات الله تعالى الظاهر جل جلاله. مأخوذة من قولك للرجل: سر إلى جانب. أي: إلى ناحية. فهي فعل حدث تنزه الباري تعالى عنه، وسبح نفسه عن قول من نسب ذلك إليه، لأنه فعل

بين اثنين زوجين لا يقوم إلا باجتماعهما في اليقظة أو في النوم، والرب تعالى هو الفرد المتفرد الذي لا قرين له.

فأمر العبد بغسل جميع الجسد وتطهيره، ليخف البدن والقلب عن ثقل فعل الجنابة التي هي نهاية البعد عن أوصاف الواحد الفرد، فإنها لا تليق إلا بالبشر. فإذا طهر الإنسان بشريته صلح حينئذ للدخول إلى حضرة الواحد الحق، ولأن يتلو كتابه، وذلك لأن تطهير الجسد ظاهراً يسري إلى الباطن، فيطهر القلب من استغراق الشهوة التي غلبته فاستغرق فيها، وغاب بها من شهود ربه، وغفل عن ذكره، بل عن كل شيء حتى صار كالعدم، ولا يخرج من هذا الوصف إلا كمل الناس من الأنبياء والرسل والصالحين الذين لم يغفلوا عن الحق طرفة عين.

مثال محسوس:

ومثال الجنب: مثال من كان جليساً للملك، يذاكره وينظر إليه، ويسارع إلى قضاء حوائجه الخاصة بحضرته، وترك الحضرة بغير استئذان، وآثر أغراض نفسه على الملك، بل نسيه، فلما أراد العودة والدخول عليه فإنه يدخل عليه عنده شيء من الخجل، ولذلك يبالغ في التطهر بأبلغ ما يقدر عليه من المعارف الأدبية، ليجبر ذلك الخلل والخزي الذي ارتكبه.

وكذلك الجنب، ينبغي له أن يتذكر مع غسل كل عضو من أعضاء جسده كل ما وقع فيه مما يبعد عن الله، وينوي الاغتسال منها، والتنظف لدخوله على ملك الملوك، وجبار السموات والأرضين، فهو أولى. ألا ترى الجنب كيف منع من قراءة القرآن كما منع من مسه في قوله تعالى: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة: ٧٩].

النيات في أعمال الغسل:

إذا علمت ذلك فيجب على المريد أن ينوي مع غسل يديه تطهير يديه عن تناول ما أبعده عن الله تعالى، وينفض يديه نفضهما من الأشياء المشغلة عن ربه عز وجل.

وإذا تمضمض ينوي تطهير الفم وتنظيفه من تلويث اللسان بالأقوال الخبيثة، ليصلح أن يجري على لسانه وفمه ذكر الله تعالى الطاهر الرفيع الجيل.

وإذا استنشق واستنثر ينوي استرواحه روائح محبوباته العلوية بالشوق إليها، فإن العشاق والمحبين يستروحون رواح محبوبهم من جهة العلو، ومهب الرياح من نواحي أرض محبوبهم.

وإذا خلل شعر رأسه ولحيته ينوي بذلك حلها من أيدي ما يملكها وينكسها من أعلا

عليين إلى أسفل السافلين، ومما يقودها إلى غير الله تعالى، فإن من انقاد إلى المخالفات انقاد إلى جهنم بناصيته ولحيته كما قال تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١] وكما ورد في الحديث: «يساق الناس إلى النار، أما النساء فبالذوائب، وأما الرجال فباللحى»(١). وكذلك روى «أن الشيطان يعقد على قافية كل عبد يثبطه عن الطاعات، ويقوده إلى الشهوات»(٢).

وإذا غسل رأسه فلينو زوال الترؤس والرياسة على أخوانه، أو على أحد من المسلمين، لأن حب الرياسة من الكبر، والكبر لا يليق إلا بالله عز وجل.

وإذا غسل وجهه فلينو بذلك تطهيره من الأنفة، وترك الانقياد إلى طاعة الحق، وإلى حضرات قربه.

وإذا مر على العين فلينو تطهيرها من النظر إلى المكروهات، وإلى غير الله تعالى مما ينفع أو يضر.

وإذا غسل العنق والرقبة فلينو فكها من ربقة التعبد للشيطان والهوى، ولأي شيء دون الله تعالى، حتى يتحرر من رق الأشياء، ويصير عبداً لربه، كما ورد: «تعس عبد الدينار، والدرهم والخميصة»(٣). فلا يكون العبد عبداً حتماً حتى يكون حراً عما سواه.

وإذا غسل جنبه فلينو بذلك تطهيره من اتكائه وتوكله على غير الله.

وإذا غسل ظهره فلينو بذلك زوال استناده إلى غير الله، وزوال تكبره بغير حق.

وإذا غسل صدره فلينو بذلك إزالة طلب التصدر في المجالس للهوى ونشر الصيت بين العباد، وطلب المدح والثناء عليه بغير حق، وزوال الغل والغش منه.

وإذا غسل بطنه فلينو بذلك تطهيره من أكل الحرام والشبهة، وإزالة الران المتراكب على القلب، وما اختفى عنه في باطنه من المهلكات.

وإذا غسل مقعدته وفخذيه فلينو تطهيرهما عن قعوده وتخلفه عن النهوض إلى ما يرضي الله تعالى.

---

(١) أخرجه ابن المنذر وابن جرير انظر (الدر المنثور ٤/ ٢٦٥).

(٢) أخرجه الترمذي وأبو داود عن ابن مسعود وأبي هريرة.

(٣) أخرجه البخاري عن أبي هريرة. والطبراني مطولاً عنه في الأوسط. قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح.

وإذا غسل قدميه وساقيه فلينو تطهيرهما من المسارعة إلى المخالفات، واتباع الهوى، وحل قيود العجز عن المسارعة في ميادين الطاعات المبلغة إلى الفوز.

وهكذا كل عضو في الإنسان فيه معان كثيرة يجب تطهيرها ليصلح الجسد للوقوف بين يدي الطاهر القدوس جل جلاله، فمن تطهر على هذا الوجه طهر ظاهره وباطنه، ووجد حلاوة طعم الإيمان، وحلاوة المغفرة بخروج الذنوب من الجوارح حال الطهارة، وزال عنه كل غمه، لأن باطنه حينئذ صار كالمرآة المجلوة، واستعد لإحسان الله تعالى لباطنه، حتى يدرك تجلي الحق لقلبه، وهكذا كل عبادة يراعى فيها العبد الآداب، والله على كل شيء شهيد، فاعمل على ذلك تجد بركته.

آداب الصلاة وأسرارها

النيات في النهوض إلى الصلاة

اعلم أن روح الصلاة بعد التطهر والنظافة والانتهاض إلى موضع الصلاة: أن تنوي بالانتهاض والمشي انتهاض القلب والباطن، وسيره ودخوله إلى عالم الملكوت، وخروجه من عالم الدنيا، حتى يدخل إلى متعبد الملائكة في العالم القدسي، ويصير بحيث يخلو قلبه عما يشغل عن كمال الصلاة.

ثم إذا قام إلى الصلاة أول الوقت ينوي بذلك: وقوع العبادة بها من وقت افتتاح الوجود، إلى زمن التكليف، وقيام الساعة، ليكتب له ثواب مستمر منذ خلق الله الدنيا إلى قيام الساعة. فهذا أول الوقت المراد بقوله ﷺ: «أفضل الأعمال الصلاة لوقتها»[1] لأن صاحب هذا المشهد قد قدر أنه لو كان موجوداً من افتتاح الوجود إلى وقت صلاته هذه لكان عابداً لله لا يفتر نفساً واحداً.

ثم إن المصلي إذا استوى قائماً ينوي بقيامه: قيام القلب إلى أعلى عليين بين يدي الله عز وجل. ثم إذا رفع يديه ينوي: التخلي عن جميع الأشياء، والفقر والفاقة إلى الله عز وجل. فإذا استحضر النية ينوي بها: التقرب إلى الله عز وجل بالصلاة، وإخراج ما في

---

(١) الحديث أخرجه أحمد عن رجل من الصحابة ورجاله رجال الصحيح . ونحوه عن أنس في الطبراني. وهذا المعنى تفسير خاص شامل للحديث ، والا فالمعنى المشهور : الصلاة لأول وقت الصلاة التي وجبت في الحال ، لا التي وجبت في الأزل في علم الله حيث تقررت حين ظهر الوجود الى الشهادة .

القلب من كل ما سوى الله، حتى لا يكون في قلبه سوى من أقبل عليه، وذلك بلا شك إشراف على حضرة من توجه إليه، وغيبة عن غيره.

فإذا أشرف على المطلوب برفع الحجب الشاغلة عن القلب، وقع له من تعظيم الحق تعالى، وخالطته حرمته واحترامه، فحينئذ يحرم بتكبيرة الإحرام، لأنه في موضع الاحترام والحرمة، فيحرم عليه النظر إلى غيره بقلبه، والاشتغال بسواه، فيقول: «الله أكبر» من أن يقبل العبد على غيره، أو يلتفت لسواه، من أجل ما عرف من جلالة قدره، وعظيم خطره.

فإذا وقع له جلالة القدر وعظيم الخطر والمهابة أخذ في الثناء على الله تعالى بالفاتحة، فيقول: ﴿الحمد لله﴾ [الفاتحة: ١]، الذي هو على ما هو عليه ﴿رب العالمين﴾ أي: سيد العالمين، فيتجلى له وصف السيادة لله تعالى التي استعبدت العالمين على كثرتهم.

نية الركوع:

فيثني على الله بصفاته، ويناجيه بكلامه، فيفهم من كلامه مع الله ومحادثته بفاتحة الكتاب والسورة بعدها ما يوجب الخضوع بين يديه، فيركع لزيادة التعظيم بشهادته أوصاف التكلم معه، فيقول: «الله أكبر». منحطاً للركوع. أي: الله أكبر مما وقع في نفسي من تعظيمه عز وجل، بل أكبر مما وقع في نفوس العالم العلوي والسفلي.

والمراد من ركوع الجسد: خضوع النفس والروح باطناً بين يدي كبرياء الله تعالى الجليل العظيم، ولذلك أمر أن يقول في ركوعه: «سبحان ربي العظيم» لما شاهده من معنى التعظيم الذي خضع له، فيرفعه الله عز وجل بكرمه إلى حالته الأولى التي هرب منها، لأن من تواضع لأجل عظمة الله عز وجل رفعه إليه.

فإذا رفعه إليه فاستوى قائماً كما كان، شاهد العبد نعمة الله في ارتفاعه أعظم من نعمته عليه قبل الركوع، فيبتدر بالحمد والثناء فيقول: «سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد حمداً طيباً مباركاً فيه». فيجد في وقوفه وطمأنينته حلاوة المزيد والنعمة التي يرفعه الله إليه بها، وهي استدعاؤه.

نية السجود:

فيخر لله ساجداً شكراً لما أولاه، فيضع وجهه على الأرض ظاهراً، ويضع نفسه وروحه حتى الثرى الذي ليس وراءه في السفل منتهى إلا نفوس الأتقياء الأخفياء الذين يضعون نفوسهم تحت كل تحت، ولذلك كان ليس وراء السجود منتهى في التواضع، ثم لا

يزال مستصحباً للتكبير يعني «الله أكبر». وأعلا من كل ما شاهدت ووقع في نفسي من تعظيمه.

فإذا وضع نفسه في السجود أسفل من كل سفل بالمعنى الذي هو الذل والإنكسار، شاهد من سفله علا ربه، فقال: «سبحان ربي الأعلى». فاستدعاه ربه للرفع والقرب من البعد والسفل الذي وضع نفسه فيه في سجوده.

ومعنى التسبيح في الركوع والسجود: تنزيه المركوع له والمسجود له من حالة الركوع والسجود، أي: سبحان من هو بخلاف حالة الركوع والسجود.

فلما استدعاه ربه للرفع قعد بالعجز بين يديه، لأنه لم يطق القيام على الفور، لثقل ما شاهد في السجود من الإجلال والإعظام، لأنه في حالة أقرب ما يكون العبد فيها بين يدي الله تعالى، فقعد بين يديه بالمسكنة والعجز، وأقر بالعجز له عن القيام بشيء من حق قدره ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١].

ولذلك أمر أن يقول في قعوده بين السجدتين: «رب اغفر وارحم، وتجاوز عما تعلم، إنك أنت الله الأعز الأكرم».

سر السجود مرتين:

فإذا فعل وجد رحمة الله قد غشيته، والمغفرة قد غمرته، لأنه قد تجلى له بوصف زائد على الوصف الأول من أجل أن الرحمة مقرونة بالضعف، ومؤدية إلى استكانة العبد لربه، فزاد سجوداً آخر، وإلا كان السجود الأول كافياً، فعاد إلى التواضع الذي هو المراد من السجود، حتى أن الخاضع لله لو وجد أن يضع نفسه في أسفل مما وضع فيه لفعل، فإنه كلما زاد تجلى الصفات الإلهية للعبد زاد في التواضع، كما أنه كلما زاد الحق في الإكرام زاد العبد في الشكر والثناء، والتجلي بالعطايا والمنح دائم أبد الآبدين، وكذلك التواضع دائم أبد الآبدين.

وإيضاح ذلك: أن آخر صلاة صليتها، إنما هي بداية للصلاة التي تقع بعدها في الترقي إذا استصحبت معانيها دائماً، فالحمد لله رب العالمين.

القيام إلى ركعة أخرى:

ثم يدعوه ربه إلى الاقتراب منه، وهو معنى القيام إلى الركعة الثانية، فيجري له ما جرى في الأولى، لكن بحكم الزيادة، لأن الصلاة إنما هي في الحقيقة ركعة واحدة، فبها تمت معاني الصلاة، وما زاد على الركعة تكرير، فلا يزال ذلك دأبه مع مولاه، يترقى في

فهم خطابه، وشهود أوصافه في قيامه وقعوده، وانحطاطه ورفعه، وأذكاره وسجوده، إلى آخر صلاته، حتى يمتلىء ظاهره بركة ونوراً، ورحمة وسروراً، وتواضعاً وحباً، وغير ذلك مما يشهده الحق تعالى للمصلين من العارفين بمعاني الصلاة.

التشهد والخروج من الصلاة

فعند ذلك يقعد في آخر صلاته، فيأخذ في التشهد والشهادة لله بما هو أهله، والثناء بما يجب، فيفرد التحية والملك لله، والطيبات الزكيات له تعالى، ويفرد العبودية له بقوله: الصلاة لله، ويصلي على أكرم الوسائط الذي هداه الله به إلى ما هو فيه، محمد ﷺ، ثم يقر بكل ما جاء به من عند الله، ويصلي عليه، ويسلم عليه.

فإذا فرغ من الإقرار والشهادة بكل ما جاء به محمد ﷺ من الإيمان بالغيوب، والدعاء والسؤال، فعند ذلك تمت له النعم بتمام الصلاة وكمالها، ووجب التحلل منها، فأمر بالخروج إلى عالم الحس والملك، لأنه كان يناجي الحضرة العلية خارجاً عن عالم الحس. قال عليه السلام لبعض الصحابة حين أوصاه: «صل صلاة مودع»[1]. أي لأنه خارج عن هذا العالم إلى الحضرة العلية، فإذا قدم على هذا العام وشاهد من حوله من الأملاك والأنس قال: «السلام عليكم». فسلم على من عن يمينه، ومن عن شماله، وحل له ما حرم عليه قبل ذلك، كما قال ﷺ: «تحريمها التكبير، وتحليلها التسليم»[2].

النوافل لجبر النقص في الفرائض:

فمن صحت له مثل هذه الصلاة وجبت له الكرامة عليها، ومن اعترضته الوسائل فليجاهد، ليكتب له أجر المجاهد إذا فاتته معية الإحسان، ومن اقتطعته الغفلات، وحرم النصيب الأوفر، وشهود المذكور الأكبر، كتب له ما عقل منها فقط، وذلك فضل عظيم من الله تعالى، وإلا فمثل هذه الصلاة يستحق صاحبها العقوبة، لأنه لم يدر بين يدي من هو قائم، فلو درى لم يلتفت بقلبه إلى غيره، مع أنه يتعاطى أفعالاً تذكره أنه بين يدي الله تعالى، فإنه واقف راكع ساجد.

وعلى هذا المصلي الإكثار من التنفل، فلعله يجبر ذلك النقص، فإنه ورد: ان

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط عن عبد الله بن عمر مطولاً. قال الهيثمي: وفي سنده من لم أعرفهم.

(٢) أخرجه الطبراني عن ابن عباس برواية فيها أبو هرمز وهو ضعيف. وأصح رواياته عند الطبراني في الكبير عن ابن مسعود بلفظ «تحريم الصلاة التكبير وتحليلها التسليم».

الفرائض تكمل بالنوافل يوم القيامة(١)، نسأل الله من فضله أن يلطف بنا ويسترنا بين يديه، ولا يخلينا من عنايته طرفة عين. آمين.

صلاة الإنسان وصلاة الملائكة:

واعلم أن صلاتنا هذه على صورة عبادة الملائكة، وعلى هيئة صلاة العابدين فيهم. فالقيام إلى الصلاة ليكون مع الذين يعرجون إلى الله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤]. والوقوف ليكون مع القائمين المشاهدين، والذكر ليكون مع الذاكرين، والهبوط ليكون مع المتنزلين، والرجوع ليكون مع الراكعين الخاضعين، والرفع ليكون مع الصاعدين، والسجود ليكون مع الساجدين، والفكر والجولان بالفهم والعقل ليكون مع السائحين الدائرين، والحضور ليكون مع الحاضرين الروحانيين، ووجود الراحة والنعيم بها ليكون مع المقربين المشتاقين المحبين، وذلك كان ﷺ يقول: «أرحنا بها يا بلال»(٢). والخشوع ليكون مع الخائفين من الكروبيين، والمجاهدة بالأذكار ليكون راجماً للشياطين الفلكيين، وإلقاء السمع ليكون مع المراقبين، وفهم المعاني في الدعاء ليكون مع الحافظين الكاتبين.

شهود المنة من الله في الصلاة

ومع هذا كله لا ينبغي لعبد أن يرى أنه قام بشيء من واجب حقوق الله تعالى أبداً، لما هو عليه من العظمة والجلال، بل يجب عليه شهود المنة من ربه عليه حين استدعاه إلى أن يكون من عباده المؤمنين، فيستشعر في نفسه ذلك ويقول: ذكرني ربي، واستمع لخطابي ومحادثتي، مع حقارتي وجفائي وبعدي، ويكثر من استصغار نفسه وتعظيم ربه، حتى يتمنى ويود في نفسه أن لو تقرب إلى الله تعالى بعبادة الخلق أجمعين. ومن هنا يفهم قوله ﷺ: «نية المؤمن خير من عمله»(٣). ثم يستغفر الله تعالى بعد الصلاة إشارة إلى رؤية تقصيره عن الإتيان بما يجب لله تعالى من كمال الصلاة.

---

(١) أخرجه أبو داود وأحمد وابن ماجه عن تميم الداري وفيه: «أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته، فإن كان أتمها كتبت له تامة، وإن لم يكن أتمها قال الله لملائكته: انظروا هل لعبد من تطوع فتكملون به فريضته؟ ثم الزكاة كذلك، ثم سائر الأعمال».

(٢) ذكره ابن الجوزي في الواهيات عن الصوفية ورقة ٦٨.

(٣) عده ابن الجوزي في الواهيات. انظر (العلل المتناهية ورقة ١٨٠) ولكن أخرجه الطبراني عن سهل ابن سعد. وفي سنده حاتم بن عباد قال الهيثمي: لا أعرفه. وفسره بعضهم بأنه عمل مع النية خير من عمل بلا نية.

وكان رسول الله ﷺ يستغفر عقب كل صلاة ثلاث مرات لهذا المشهد، فكأن المصلي يتوب من شهود الحسنات كما يتوب العاصي من السيئات، من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين، ولهذا يقول الملائكة يوم القيامة: «سبحانك ما عبدناك حق عبادتك يا معبود» على صفاء عبادتهم عن شوب الكدورات، وعمد فتورهم عن العبادة في وقت من الأوقات.

وهذا الذي تقوله الملائكة هو الذي قاله ﷺ: «لا يدخل أحدكم الجنة بعمله. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته»[1]. وهذا مع اجتهاده ﷺ وصفاء أحواله، وليس معناه: أن العمل لا ينفع صاحبه، فيكون محرضاً على ترك العمل، وإنما معناه الترغيب في الاجتهاد بجميع ما يقرب إلى الله تعالى، فهو تنبيه على عظيم حق الله تعالى الموجب لرؤية التقصير لا غير. قال الله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥] أي: ذكر الله للعبد أكبر من كل ما يتقرب به العبد إلى ربه.

تارك الصلاة مخالف لنظام الكون:

واعلم يا أخي أن الوجود كله بأجزائه كلها دائم الصلاة لله تعالى بدوام وجوده، لا ينفك عن الصلاة طرفة عين، فإنه في مقام العبودية لله تعالى في كل وقت ونفس، فمن أدمن النظر رأى الوجود كله ظاهراً وباطناً مصلياً ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٥].

فمن ترك الصلاة فقد خالف الخليقة كلها، وأخل بنظام العالم، ولذلك يحشر مع فرعون وهامان وجنودهما وغيرهم من المتكبرين عن عبادة الله، لأنهم تابوا عن التواضع لله كما فعل فرعون فافهم، فإن الذي لا يخضع لأحد إنما هو الله وحده، كما ورد الأمر بقتله لذلك.

الصلاة الكاملة:

فمن صلى بجسده وقام بأركان الصلاة كما أمر ظاهراً، وأنزل نفسه مع كل ركن من أركانها في معانيها الباطنة، وفهم بروحه وعقله تلك المعاني، وشاهد المراد بكل ركن منها، فقد صلى بجسده وقلبه وروحه وعقله، ومن لم يكن كذلك فهو تحت مشيئة الله، فنستغفر الله العظيم، ونسأله العفو إنه كريم حليم.

---

(١) أخرجه الشيخان عن عائشة، وأحمد عن أبي سعيد، والطبراني عن أبي موسى.

آداب الزكاة وأسرارها

الزكاة طهارة للمال:

اعلم يا أخي أن الله تعالى جعل الزكاة طهراً للأموال والأبدان، وتزكية وتنزيهاً للنفوس والأرواح. أما كونها طهراً للمال فلما ورد من الصحيح: «إن الله تعالى جعل الزكاة طهراً لأموالكم»[1]. ومعلوم أن التطهير إنما يكون من النجاسة والخبث، ويؤيد ذلك ما ورد «إن الصدقة أوساخ الناس، وأنها لا تحل لمحمد وآل محمد»[2].

والحكمة في ذلك: أن الله خلق الخلق وأفقر بعضهم إلى بعض، وجعل منهم الأغنياء والفقراء، وذوي الحاجات المختلفة، ليستقيم أمر الخليقة. ولو أنه كان خلقهم كلهم أغنياء لبطل نظام الوجود، وكذلك لو خلقهم فقراء كما قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢].

فجعل الله سبحانه للفقراء وذوي الحاجات حقوقاً في أموال الأغنياء هي مفروضة عليهم، ليس لأصحاب الأموال فيها شيء، لأن الله تعالى هو الذي أخرج للفقراء ذلك النصيب من نفس المال الذي استخلف فيه الأغنياء من عباده.

واعلم أنه لو كان مال الزكاة ملكاً لصاحب المال لما وقع الوعيد على منعها، فالزكاة للفقراء حق على الأغنياء، كما أن الصلاة مفروضة لله حقاً على عباده، ولذلك جاءت في كتاب الله تعالى مقرونة بالصلاة نحو قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٢]. تقديره: أقيموا الصلاة لي، وآتوا الزكاة للفقراء وأهل الحاجة إليها. وكفى بهذا شرفاً وفخراً للفقراء، حيث قرن الله تعالى حقهم بحقه. فلهم في الأموال حق فرضه الله تعالى لهم، إذ المال ماله، والخلق عبيده، يعطي من يشاء المقدار الذي يشاء، فإنه تعالى بلطيف علمه، وخفي حكمته، لولا علمه بأن ربع العشر من الفضة والذهب، والعشر أو نصف العشر من الأقوات، والشاة من أربعين، وغير ذلك من نصيب الزكاة يكفي الفقراء ويسد خلتهم لكان فرض أكثر من ذلك. فهو يكفي لو أخرج الأغنياء زكاة أموالهم كاملة، وسعى كل عبد ما وسعه السعي، لأن الله تعالى جعل في كل قطر من الأغنياء جماعة تكفي زكاتهم فقراء قطرهم، وإنما احتاج الفقراء لعدم إعطائهم حقهم كاملاً.

---

(١) أخرجه أحمد والطبراني عن أنس مطولا ورجاله رجال الصحيح.

(٢) أخرجه أحمد وأبو يعلى عن الحسن بن علي والحسين بن علي ورجاله ثقات.

وكذلك لولا أن الله تعالى علم بلطيف علمه وحكمته: أن المال يطهر ويطيب لصاحبه بإخراج ذلك القدر لكان فرض على الأغنياء أكثر مما فرض، ليطيب لهم أموالهم، ويحفظها لهم من الغرق والسرق ونحو ذلك، فممسك الزكاة إنما أكل أوساخ الناس، بل دماءهم.

وكذلك آخذها بغير حقها، وواضعها في غير حقها، لأنه أكل حقوق الغير، وهم محتاجون إليها، وكذلك رآهم رسول الله ﷺ ليلة الإسراء فقال: «ورأيت قوماً على إقبالهم رقاع وعلى أدبارهم رقاع، وهم يسرحون إلى الضريع والزقوم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ فقال: هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم»[1].

فالزكاة المفروضة إذن هي أقل درجات التطهير للأموال.

الزكاة طهارة للأبدان والأرواح:

وأما كونها طهارة للأبدان والأرواح من كل خبث ومرض وآفة وعاهة وجرب وحكة وصلب وتوسيط وقطع أطراف وغير ذلك، فإن الله تعالى يقول: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]. وأوجب الزكاة المفروضة، فما لم تؤد لم تطهر الأعضاء بالنوافل من سائر الصدقات أو القربات، كإزالة القذر من الطريق، وإغاثة الملهوف، والإصلاح بين الناس ونحو ذلك كما يشير إليه حديث: «على كل سلامي من أحدكم صدقة»[2].

ولذلك يبطح مانع الزكاة يوم القيامة للماشية، فتمشي عليه بقوائمها، وتنطحه بقرونها، وذلك لأن أعضاء جسده التي لم يتصرف بها في المال كما أمر، ولم يوصل الحقوق بها، ولم ينبسط لإعطائها إلى أهلها، بل انقبضت عن ذلك، وانضم بعضها إلى بعض بالبخل الشديد الذي لا يحتمل أكبر منه، لأن منع الزكاة أعظم درجات البخل، وأداءها أقل درجات الجود والسخاء، الذي هو البسط في الأيدي والأعضاء. فلم يجد الغني في المال حركة ولا موضعاً ينبسط فيه بالمشي، فيبطح لتدوسه وتنطحه، لأن الحركات والسكنات في الآخرة إنما هي على معاني الديانات من أنواع الطاعات، لا يجد العبد إلا ما قدم، ولا يتصرف إلا فيما كان قد تصرّف فيه.

وأيضاً فإن المال له علاقة بقلب مالكه، فهو يملكه ويشده ويضمه إليه بتلك العلاقة،

---

(١) أخرجه مسلم عن أنس في حديث الإسراء.

(٢) أخرجه الترمذي وأبو داود عن أبي هريرة.

والمال مطيع له، وتابع حيثما تصرف بالعلاقة التي يجذبه بها إلى ملكه. فالذي لم يؤد الزكاة قد أحب المال الحب الكلي، ومال به المال إليه، وباستغراق الحب فيه تعبده المال، فصار ذليلاً لمحبوبه كما ورد في الحديث: «تعس عبد الدينار والدرهم»[1].

والتذلل هو التعبد. فبالميل الذي مال به إلى المال يبطحه من قيامه يوم القيامة، ويتذلل باستعباده له، فيصير بين أرجله، وبعلاقته التي ملك بها المال وزمه إليه وجذبه تمشي الماشية عليه في كل ناحية، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، فافهم.

ولو أن ماشية جسده في الدنيا كانت قد تصرّفت بإعطاء الحق لمن وجب له لانبسطت أعضاء جسده من قبض البخل، ووجد هناك متحركاً ومتصرفاً، ولو انقطعت علاقة الحق الذي وجب عليه فأخرجه من قلبه، لأمسكت تلك العلاقة المنقطعة الماشية عن المشي عليه، لأنها حصلت في يد الله وأيدي أهلها، فصارت كالزمام المانع للماشية عن المشي عليه، لأن المال كله كشخص واحد، ومفروض الزكاة فيه هو عقاله، كما قال سيدنا أبو بكر رضي الله عنه: «والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه»[2] أراد بالعقال: البعير. وسمى عقالاً لأنه يعقل الماشية عن المشي على المانع للزكاة.

حكمة عذاب من كنز المال بكى الجباه والظهور:

وهكذا الحكمة أيضاً في كي الجباه والظهور والجنوب بالذهب والفضة. قال تعالى: ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم. يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾ [التوبة: ٣٤ ـ ٣٥].

وحقيقة معنى الكنز: الدفن والإخفاء والستر، الذي هو ضد الكشف والإظهار. فالذهب والفضة لما كانت جميع الحوائج في هذه الدار لا تنقضي إلا بهما، وعاين المحجوبون ذلك منهما، أحبوهما الحب البالغ، فجذبتهما القلوب إليها جذباً شديداً، بالعلاقة التي تقدم ذكرها في زكاة الماشية، حديث خامرت سويداء القلوب، ومن أحب شيئاً حباً شديداً أدخله في سويداء عينه إن أمكنه، وضمه إليه، وألصقه بجلده، إن ظفر به،

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد عن أبي بكر والشيخان عنه.

ولذلك تجد أن الذهب والفضة لا يظهر منهما شيء كسائر الأموال إلا ما تصرف فيه المالكون بالمباشرة بالأيدي.

فمن ملك ديناراً ربطه فأخفاه، وحرسه بالنظر إليه، والإشراف عليه بجبينه الذي هو جبهته، لأنها موضع الحراسة التي فيها العينان، فحيثما كان المالك له فهو ناظر إليه، خائف عليه، لا يبرح، ومتكىء عليه بجنبيه وظهره، بمعنى الاستناد عليه، والاعتماد والتوكل، ولذلك خصّت هذه الأعضاء بالذكر لأنها أعظم أعضاء الجسد موافقة لمعاني الفتنة بالذهب والفضة، لأنه يتقلب عليها بالاستناد والاعتماد والإشراف، فإذا لم يؤد مالكه الزكاة منه اختفى الاختفاء الكلي عن عين المالك، والتصق بالحب الشديد حتى صار كصفة من صفاته، وعضو من أعضائه، لأن حقيقة الحب: طلب الاتحاد بالمحبوب، فجاء به إلى المال، وهو ملتصق به صفائح محماة بنار جهنم، لأنه لم يرد به الله، ولم يعط منه حق الله. وما كان كذلك فهو مبعود عن الله وعن دار كرامته إلى دار البعد وهي النار، لأن المراد به هوى النفس والدنيا، ولذلك يقول الله عز وجل يوم القيامة: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾ [الأنفال: ٣٧].

فبهذا المعنى تفهم يا أخي معنى انقلاب تلك الصفائح ناراً، وكذلك هي في الدنيا محماة في نار الحرص والحمية في شدة طلبها، وإخفاء المال وكنزه، ولو أخرج زكاته كما أمره الله لانقطعت العلاقة من قلبه بقدر ما أخرج، وصار في الدين مستخفياً، وظهر للملائكة، وقبله الله تعالى. فإذا فعل ذلك فقد طهر المال كله، ولم يكن من الكنز في شيء، لأن المالك قد علم قدر المال بإخراج الزكاة منه.

وإذا علم الناس ذلك فقد طهر وانكشف وزحزح عن النار، وبقي عليه الحساب في جملته: هل قام بحقوقه كلها أم لا؟

وهكذا زكاة الأقوات إذا منعت كان عذابها من أنواعها: أكل الضريع والزقوم كما تقدم في حديث الإسراء.

فيستحب للأغنياء الإكثار من صدقة النافلة، فلعل ذلك يجبو خلل زكاتهم الماضية، هذا إذا كان المال حلالاً صرفاً، وإلا فقد ورد في الصحيح في حق من اكتسب المال من وجوه لا ترضي الله تعالى من الحوب[1]، والخداع، والغش، والمكر: أنه لا يقبل منه

---

(١) الحوب: الظلم.

صدقته إذا تصدّق به، ولا يتركه بعده لورثته إلا كان زاده إلى النار[1] نسأل الله تعالى اللطف، وفك العقد، انه على كل شيء قدير. آمين.

الزكاة تخلق بأخلاق الرحمن:

ثم ينبغي لك يا أخي أن تنظر وتتفكر في أخلاق الله سبحانه الذي خلق السخاء والكرم، وأفاض عطاءه وفضله على جميع المخلوقات في كل الأوقات، فتتزكى وتتصف بوصف من أوصاف الحق الزكي على قدر طاقتك.

وأقل ذلك: أداء الزكاة المفروضة، لأن الأرواح تزكو بها، وتطهر الأسرار، فتصلح يا أخي للقرب من الحق في مقام المقربين. قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]، والتزكية بلا شك من صفات الأرواح، لأنها وصف من صفات الزكي الطاهر، ويتنزه المتصف بها عن رذيلة البخل، ويتصف بصفة الجود والسخاء.

وإنما تقع التزكية لمن يبذل المال في وجوه البر كما قال تعالى فيمن وصفه بذلك: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل: ١٧ ـ ١٨] نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين أنفق ماله في ذات الله عز وجل. وكذلك قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥] نزلت في علي ابن أبي طالب رضي الله عنه حين تصدق بخاتمه وهو راكع.

الكائنات كلها تؤتي الزكاة:

ثم اعلم يا أخي أن الوجود كله إذا نظرته بعين الاستبصار وجدته متعبداً لله تعالى بالزكاة، كما هو متعبد بجميع شرائع الإسلام، لأن الدين عند الله الإسلام ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣].

وإذا نظرتَ إلى الأرض التي هي أقرب الأشياء إليك وجدتها تعطي أقرب الخلق إليها وهم الذين على ظهرها جميع بركاتها، لا تبخل عليهم بشيء مما عندها في فصول العام كلها. وكذلك النبات يعطي ما عنده تشبهاً بأصله، وهو الأرض في الظاهر، وكذلك جميع أنواع الأشجار، وكذلك الحيوان، وكذلك البحر والسموات والأفلاك والشمس والقمر

---

(١) أخرجه البخاري عن أبي مسعود وأحمد عنه. قال الهيثمي: بعض رجال سند أحمد فيهم خلاف. والطبراني عن سعد بن عمارة ورجاله ثقات.

والنجوم، والكل متعاون بعضه مع بعض، لا يدخر شيئاً من قوته وما عنده في طاعة الله، لأن الوجود كله فقير بعضه إلى بعض، قد لزمه الفقر، وشملته الفاقة، فعطف بعضه على بعض، وتعاونه في طاعة الله، وإعطاء ما عنده هو زكاته دائماً بدوام وجوده.

فمانع الزكاة قد خالف أخلاق الرحمن، وأخلاق أهل السموات والأرض، وجميع المخلوقات والموجودات، وباين الفطرة، ولذلك وجب قتاله وقهره. فافهم.

وهكذا شأن الموقنين جميعاً، يرون ما دعت إليه الرسل واضحاً في كل شيء، وعلماً في جميع الموجودات، ولذلك سماهم الله تعالى: ﴿موقنين﴾. فنسأل الله تعالى أن يلحقنا بهم، وأن يرزقنا هديهم، إنه جواد كريم. آمين آمين.

* * *

آداب الصوم وأسراره

اعلم يا أخي ـ رحمك الله تعالى ـ أن الحكمة في الصوم: كف الجوارح الظاهرة والباطنة عن المنهيات الموجبة للعذاب في الدار الآخرة. فيتذكر الصائم الآخرة ويصوم عما يوجب العذاب فيها، فإن كل منهي وقع فيه العبد فقد فتح على نفسه منه باباً إلى النار.

الصوم اتصاف بصفة الله:

إذا علمت ذلك فينبغي للصائم أن يتذكر بصومه صفة الحق تبارك وتعالى، وأنه هو الذي يطعم، ولا يطعم، فيتصف بشيء من تلك الصفة على قدر طاقته، لأن الصوم معناه: الإمساك عن الاسترسال فيما حظر على العبد، وهو حفظ الجوارح وزمها وإمساكها في أيام الصوم دون لياليه، لأن الصوم لا يكون إلا بالنهار، فإذا دخل الليل وغابت الشمس، أرسلت الجوارح فيما حظر عليها من المباح إلى أن يلوح الفجر.

وكذلك يصام لرؤية الهلال في أول الشهر أيضا، ويفطر لرؤيته في أول الشهر الثاني.

والمراد بهذا السر العظيم: أن الليل غيبة، والنهار حضور، فالنهار آية وجود الباري سبحانه وتعالى، والليل آية إلى وجود الأغيار دونه، كما قال ﷺ: «إن الله خلق الخلق في ظلمة، ثم أفاض عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضل»[1].

---

(١) أخرجه الترمذي عن حذيفة وحسنه.

والصوم وصف من أوصاف الربوبية، لا يتصف به على الكمال إلا الله الذي يطعم ولا يطعم، كما قال في الحديث القدسي: «الصوم لي وأنا أجزي به»[1]. فأضافه إلى نفسه، أي: لا يتصف به أحد إلا الله، لأنه الغني عن الأكل أبد الآبدين، ودهر الداهرين، والمنزه عن جميع الأغراض والشهوات أزلاً وأبداً، ولا يتصف بهذا إلا الله، وما سواه لا بد له من أكل وغرض، ملكاً أو غيره.

فالملائكة طعامهم التسبيح، وشرابهم المحبة الخالصة، والمعارف والعلوم الصافية، ومن سواهم طعامهم وشرابهم ما يليق بهم في دار الدنيا، وفي كل دار.

وقد دعا الباري سبحانه عباده إلى الاتصاف بأوصافه، وتعبدهم بها على قدر طاقتهم ووسعهم، والصوم من أوصافه تعالى، ومن أصعب الأشياء على النفوس، لأنه خلاف ما جبلوا عليه، فإن وجودهم لا يقوم إلا بمادة، بخلاف وجود الباري تعالى الغني عن كل شيء.

الصوم تحرر من العبودية للشهوات

ففرض الله تعالى الصوم على عباده، كسراً للشهوات، وقطعاً لأسباب الاسترقاق والتعبُّد للأشياء، فإنهم لو داموا على أغراضهم لاسترقتهم الأشياء واستعبدتهم، وقطعتهم عن ربهم كل القطع، والصوم يقطع أسباب التعبد لغير الله، ويورث الحرية من الرق للشهوات والمشتهيات، لأن المراد من الإنسان: أن يكون مالكاً للأشياء، وخليفة فيها، لا أن تكون مالكة له، لأنه خليفة الله في ملكه، فإذا استغرق في أغراضه وملكته فقد قلب الحكمة، وصير الفاعل مفعولاً، والأعلى أسفل، كما قال تعالى: ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٠].

والهوى إله، به استعبدت الأشياء الخلق. فالصوم يورث قطع أسباب التعبد لغير الله تعالى.

وقد علم الله أن «رمضان» يغني في قطع ذلك كله إذا صامه الصائمون كما ينبغي أن يصام، ولذلك ورد في الخبر: «إذا اسلم سلمت السنة كلها»[2]. ومن زاد في حريته ما لم يخرج إلى ضرر بالنفس والعقل.

---

(١) أخرجه البخاري عن أبي هريرة. وأحمد عنه بزيادة: «كل العمل كفارة الا الصوم ...». الحديث.

(٢) أخرجه الطبراني عن أبي هريرة. وفيه: عباد العوام ... ضعيف جداً.

الفرق بين صوم الحق وصوم الإنسان

فاعلم أن الكمال المحض في حق الإنسان إنما هو: أن يملك الأشياء ولا تملكه، ويسترقها بالخلافة ولا تسترقه بالفتنة، فيتناول الشهوات في أوقاتها، ويضعها في أماكنها. ووصف الربوبية: أن الله تعالى يتصرف في ملكه بالتدبير، ولا يشغله، بل يملكه الله كل الملك، ويقهره كل القهر، والمراد بالصوم: الاتصاف بذلك الخلق على قدر الطاقة الإنسانية، وهو: الوقوف عن تناول أغراض النفوس، ليستغني عنها بنفسه، كما ورد: «ليس الغنى عن كثرة العرض، إنما الغنى غنى النفس»[1].

فلما لم يصح للعبد الصوم على الكمال كما هو للباري جل وعلا، لم يكن له بد من تناول ما يحتاج إليه، إذ لا يطيق الدوام على تلك الحالة إلا هو الغني الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. فهكذا دأب العباد في كل سنة، مع ما في أوقات الصلاة من الخروج والفرار عن الأشياء أيضاً إليه تعالى، وكذلك وقت الحج وغيره من المفروضات.

لماذا لم يتحرر الإنسان بالصوم:

فإذا أديت تلك الفرائض على الكمال أورثت الحرية الكاملة، ولو لم يكن لما فرضه الله تعالى، لأن رضى الله تعالى إنما يكون في فرائضه، وإنما التقصير في أداء الفرائض هو الذي أذل النفوس، ونكس الرؤوس، وضرب على العباد الرق للأشياء.

ألا ترى أن العارفين قالوا: إنما الصوم الحقيقي: إمساك الجوارح عن المخالفات. وقال أبو الدرداء[2] رضي الله عنه: «يا حبذا صوم الأكياس وفطرهم، كيف يصومون صوم الحمقى وسهرهم» وكذلك ورد في الخبر: «أن الغيبة والكذب يفسدان الصوم». والنظر بشهوة كذلك، كما تشهد له الأخبار.

فلو أن الفرائض أديت على حسب الأمر لكان فيها رضى الله تعالى، وغاية الدرجات، ولذلك استحب للعبد كثرة النوافل، لأنها تجبر نقص الفرائض، كما ورد في الأخبار.

من جزاء الصوم ومعانيه:

وإذا فهمت هذا وعلمت أن فطام النفس من حب الدنيا والمنهيات هو الصوم الحقيقي

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير عن ابن عباس قال الهيثمي: رجاله ثقات.

(٢) الترمذي الحكيم في جامع الأصول.

لمن لاحت له أنوار اليقين بالله عز وجل، والدار الآخرة، فصام لرؤيته ـ وذلك مدة الحياة الدنيا ـ وأفطر عند الله تعالى لرؤيته، وذلك يوم عيده عند خروجه من الحياة الدنيا إلى الآخرة، وهكذا استقرارهم في الجنة، إنما هو جزاء على ما استعبدوا له في دار الدنيا، فإن وقوفهم عن أغراضهم حين كانوا مع الله بالمشاهدة في الآخرة شبيه بأيام رمضان وأيام الفرائض، وإذا أشهدهم الحور والأكل وغير ذلك فإنه شبيه بليالي رمضان، وبخروجهم من الفرائض إلى المباحات ليلاً، وهكذا صومهم على الدوام، يصومون لرؤيته ويفطرون لرؤيته، منَّ الله عليه وعلى أخواننا. آمين.

الموجودات كلها تصوم:

ثم اعلم يا أخي أن اعتبار الصوم عام في الموجودات كلها، قد شملها جميعاً، فإن الصوم من معانيه: إمساك جميع الموجودات وتقييدها عن الخروج عن وظائفها التي قيدت بها، فإذا نظرت إلى الموجودات كلها وجدت كل واحد منها قد لزم ما قيد به، وأمر به.

فترى الثقيل قد أمسك في مقامه لا ينتقل، والخفيف لا يصعد من مقامه، فكل شيء مزموم بزمام الأمر، وممسوك بإمساك الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا، وذلك صيام كله في حق كل موجود مما يناسب كل موجود ﴿ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [آل عمران: ٨٣]. ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: ١٩]. ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]. لأنه دين الله الذي افترضه على جميع خليقته وفطرته التي لن تجد لها تبديلاً أو تحويلاً.

فصوم العالم: ضبطه نفسه، وإمساكه ذاته بانحيازه إلى بارئه سبحانه وتعالى، خضوعاً لحكم الأمر طوعاً أو كرهاً، والانقباض عن أن يسترقه شيء غير الله تعالى. وهذا إذا نظرته بحقيقة النظر وجدته عاماً في جميع جواهر العالم كله، كوناً وشرعاً، وحالاً ومقالاً، إلا الثقلين، فانهم خالفوه شرعاً وكوناً. ولهذا ورد في الأخبار الصحيحة: أن لله تعالى في كل رمضان عتقاء من النار[1] لانقطاعهم عن أسباب الهوى التي استرقت الخلق، إلا من شاء الله، والله غفور رحيم.

* * *

---

(١) أخرجه أحمد والطبراني عن أبي أمامة، ورجاله موثقون، ولفظه: «لله عند كل فطر عتقاء».

آداب الحج وأسراره

الكعبة والقلب والإنسان:

اعلم يا أخي أن الحج من أعظم أركان الدين، فلنبدأ بوصف كيفية العمل ظاهراً، ثم ننبه على أسراره في كل عدد من أعماله، وموقف من مواقفه، عند ذكر أعماله الظاهرة، لترتبط الحكمة الظاهرة بالحكمة الباطنة إن شاء الله تعالى.

البيت العتيق:

فأول ما يجب عليه يا أخي أن تفهم: أن البيت العتيق في مكة أعزها الله، ببطن واد كما وصفه الله بقوله: ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ [الفتح: ٢٤]. و﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ [ابراهيم: ٣٧]. والبطن: ما يخفى فلا يظهر، وكذلك الوادي: ما انخفض من الأرض. والبلاد محيطة به من جميع النواحي: من المشرق والمغرب والجنوب والشمال. وله أربعة أركان: اليماني منه يلي جهة اليمن، والركن الشامي يلي جهة الشام، والعراقي إلى جهة المشرق من طلوع الفلك، والركن الرابع يلي جهة المغرب، وأعلاه يلي البيت المعمور في السموات.

وكذلك القلب في باطن الإنسان، في خفية منه، شبيه بمكة التي هي في واد وبطن. يمينه على جهة ملائكة اليمين التي هي الجنة، وبواطن اليمن والبركة.

وشماله يلي ملائكة الشمال الغلاظ الشداد الذين هم خزنة قبضة الشمال وهي النار.

والركن الآخر جهة الدنيا، شبيه بالركن العراقي من جهة المشرق، وكما قال النبي ﷺ: «الفتنة ههنا. وأشار إلى المشرق[1]». وباب الكعبة من ناحية العراق، وكذلك باب الدنيا من جوارحه، لأن الظواهر كلها من جهة الدنيا، وتطلع للإيجاد في عالم الدنيا.

والركن الرابع شبيه بما يلي الأقدار السابقة في اللوح المحفوظ، والقضايا الواردة عليه من الأزل القديم، لأن ما يرد على القلب من هذه الجهة مغيب عنه، وشبيه بالمغرب الذي تغرب فيه الأفلاك وجميع الحركات... وأعلا القلب يلي العرش، وهو موضع نظر الله تعالى.

ومثل الحرم المحيط حول البيت لا يقطع شجره، ولا ينفر صيده، مثل تحريم دم

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذي عن أبي سعيد.

الإنسان وعرضه، وكل شيء فيه من أجل قلبه الذي هو محل الإيمان، وكذلك حرم مكة إنما حرم وعظم من أجل البيت.

ومثل إحاطة آفاق السموات كلها من جميع جهات البيت مثل إحاطة عالم الملكوت بالقلب.

ومثل ارتفاع الجبال في نواحيها على مكة كلها مثل الجبلات والغرائز الحسية التي جبل الله الإنسان عليها.

وفيه بئر زمزم، يستخرج ماؤه بالدلاء، وهو ماء مختزن في محله، لا ينال إلا بالاستقاء والأسباب، وهو مثل علوم الشرع لا تنال إلا بأسباب الطلب، وفيه شبه زعاف[1]، وهو مثل الصعوبة في درس العلم على النفوس، وماء زمزم لما شرب له، وكذلك العلم لما نوى طالبه به. وزم العلم في خزانة الحفظ عند حافظيه شبيه بماء زمزم وحفظه بأيدي أهل السقاية الذين يسقون الحجيج.

وفي جوار البيت الحجر الأسود مبني فيه، مثاله: سويداء القلب، وفيه تكون المواجيد التي تظهر فينا تدبير القدرة الإلهية.

ومثل مواطن الحج ومواقفه: مثل منازل ومقامات تحلها النفوس والأرواح والعقول والأسرار والخواطر والإرادات والحواس والهمم.

والكعبة بيت الله في الأرض، وكذلك القلب بيت الله على الحقيقة، لأن بيت مكة لا يسعه، ووسعه قلب عبده المؤمن كما قال الله تعالى في الحديث القدسي.

النداء بالحج:

ولقد دعا الله الناس للحج، وفرضه بشرط الاستطاعة، ومعنى الحج في اللغة: القصد إلى المحجوج له، والزيارة في مواطنه، كما قيل: إن العرب كانت تحج إلى النعمان وهو ملكها، أي تقصده لقضاء حوائجها، وهو مشتق من المحجة التي يقطعها الحاج في طريقه لزيارته، وقصده إلى بيت الله.

وكذلك جملة أسرار الإنسان نوديت بالقصد إلى الله بالقلوب، وفيها يتجلى الله تعالى كما ورد: «اطلبني عند المنكسرة قلوبهم».

---

(١) الزعاف: المتغير الطعم.

وأمر إبراهيم أن يطهر البيت للطائفين والعاكفين، وكذلك أمر نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام حين دخله فطهره من الأوثان والأرجاس الجاهلية عام الفتح، حين فتح الله عليه مكة، وكذلك إذا فتح الله تعالى على الإنسان مكنه بالنصر على إبليس وجنوده، وعلى صفات الجهل، ودقائق الشرك، طهره من التماثيل التي تمثلت في القلوب، وعكفت عليها النفوس، التي توهمت أنها تضر وتنفع.

وقيل: إن الحجر الأسود إنما أسود من أيدي المشركين، وكذلك سويداء القلب إنما تسود من خواطر الشرك والجهل، ونزغات الشيطان حين يغطيها الران.

ومثل غيبة الناس عن البيت في أمصارهم وقراهم: مثل غيبة أسرار العبد وتصرفها في عالم الدنيا والمباح.

ومثل ترك الأوطان والقصد إلى مكة للحج: مثل خروج أسرار العبد من الدنيا إلى الله عز وجل، وهو الحج الأكبر على الحقيقة لمن أعطيه.

قطع الطريق إلى البيت:

وأول أمور الحج قطع الطريق إلى البيت، ومثله: قطع منازل السلوك إلى الله عز وجل، ومثل ما يلقي في الطريق من المخاوف والأهوال أو التيسير ـ مثل ما يلقى في طريق الله من الوسواس والمكابدة، وضد ذلك لمن سهل الله عليه طريق الوصول إلى قربه.

الوصول إلى الميقات والإحرام

ومثل وصوله إلى الميقات، وتركه الأوطان وراء ظهره: مثل إشراف العبد بسره على استنشاق روائح الملكوت، فيرمي أمور الدنيا كلها وراء ظهره بترك المبالاة بها.

وأول ما يعمل الحاج في الميقات: التجرد من المخيط، ومثله: تجرد الأسرار من الالتباس بما يشغل عن الدخول في طريق أهل السير إلى الله في منازل السلوك، ثم بعد ذلك الغسل للإحرام. ومثاله: التطهر من أوساخ الغلل الملوثة له في دار الدنيا، ليتأهب للوصول إلى مطهر السر. ثم بعد ذلك لبس ملابس الإحرام، وهو مثال للبس الأسرار أسباب الزهد. ثم صلاة ركعتين، وهو مثال التزام الذل والتواضع في طريق الله لمن دخلها، وترك الكبر، لأنه لا يليق بطريق أهل الله عز وجل. ثم بعد ذلك عقد الإحرام، والدخول فيه بالنيّة، ومثاله للأسرار الالتزام بملازم طريق الله، لأن كل من دخل طريقاً التزم أموره بالعزم والحزم.

من معاني التلبية:

ثم بعد ذلك التلبية. ومعناها: أن الله تعالى دعا الخلق إليه، وطالبهم بالإعراض عن غيره فأجابوه: لبيك اللهم لبيك، إجابة لدعوة الله. ومعنى رفع الصوت بها: أن العبد في محل الغيبة لم يصل إلى حضرة ربه، فيرفع الصوت بالتلبية والاستجابة له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤]. فرفع الصوت بها إنما هو لمحل القواطع الشاغلة، كيلا تصده في طريق الله، لا لإسماع الله عز وجل، فإنه تعالى ليس أصم ولا غائباً، فما رفع العبد صوته إلا ليجمع عوالمه في بحر الشتات.

محظورات الإحرام

ثم ترك الصيد وعدم قتله. ومثاله: ترك الحيل في أخذ الدنيا وصيدها بالدين، ولذلك أمر العبد بالزاد في الحج بقوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧].

ثم ترك الطيب والرفاهية، وهو مثال: ترك الإسراف، والانحلال من لوازم طريق الله، والركون إلى خدع النفوس، وركوب المحظور المحرم. ومن واقع شيئاً من ذلك لزمه الجزاء والفدية، ومثاله في طريق الله مجازاة النفوس بالتوبة، ورد الظلامة، والإقلاع.

دخول مكة والطواف:

فإذا دخل مكة أمسك عن التلبية، لأن السر قد استشعر الحضور حين دخل ساحة الملك، فإنه ليس من الأدب رفع الصوت بحضرة الكبير المتعال، ولأن حضوره يقطع عنه الشواغل التي توجب له رفع الصوت في محل الغيبة.

ثم يطوف الجسد بالبيت، ومثاله في القلب: جولان الأسرار، في عوالم الملكوت حول العرش، ويبدأ الطائف بالحجر ثم يعود إليه. ومن الصحابة من كان يستلم الركن اليماني، فمن استلم الأركان كلها ولم يقتصر على الحجر أشار إلى أنه يتملق ربه، ويركن إليه بسره في كل شيء، وينبسط ويهن للإقبال عليه، ومن اقتصر على الركن فقط فكأن السر أشار إلى التعزير والتوقير كما يصنع من يقبل يد الملك، إذا دخل عليه، ثم يحف به، ويطوف حوله، ولا يقربه إجلالاً حتى يعود إليه.

وصفة الطواف ثلاثة أشواط خبباً[1]، وأربعة مشياً، ومثاله في السر إذا شاهد من

---

(١) الخبب والخب ضرب من السير مع هز الكتفين والإسراع.

صافح يمينه استفرغ الجهد في إظهار الوقار، ووصف ما خالطه من الإعظام والحب، ثم كلما مضى يستأنس بتسكين الله له بما يجده من السكينة واللطف، والطمأنينة والرحمة. فقد ورد في الخبر: أن الطائف يخوض في الرحمة.

ثم يتنحى إلى مقام إبراهيم عليه السلام، فيصلي فيه ركعتين، ومثاله في السر إذا صافح سبحات اليد تخللت مودته أسراره، إذ أن الله تعالى بدأ عبده بتوصيله إلى مقام الخلة، فتواضع وسجد شكراً له على إنزاله إياه تلك المنزلة.

ثم يرجع إلى الحجر الأسود ويقبله، وكذلك السر، يرجع إلى اليد فيقبلها تقبيل رؤية للمنة التي أنزلته منزلة الخلة واليقين، ومن رأى المنة وقبلها، فقد رأى اليد التي امتنت عليه وقبلها.

بين الصفا والمروة:

ثم يرجع إلى الصفا للدعاء، وكذلك السر إذا نزل المقام المتقدم، وشاهد المنة، وقبل اليد، خرج من ذلك إلى ربه، وترك الدعوى، ولزم الفقر من جميع الأحوال، فيصفو قلبه من دقائق الشرك الخفي، ومن إضافة الأمور إلى نفسه، ثم يسرع إلى المروة فيقف عليها، ومثاله: أن السر صعد عن الأشياء بخروجه منها، وارتقى برقيه على الصفا مهللاً، وهرب ـ من صفاء سره ـ أن يرى لنفسه مقاماً، أو يرى أنه وصل إليه، فيفر إلى المروة، إذ ليس من المروءة أن يرى لنفسه شيئاً من الأشياء باستحقاق، أو يدعيه بحضرة مالكها وواهبها، بل من أقبح القبيح. فيفر حين يرى ذلك قبيحاً إلى المروة، ثم يفر من ادعاء صفاء أحواله، ويخرج منها.

وإذا كان حاجاً بقي على إحرامه، وعندئذ تمت وظائف القدوم، ويسمى ذلك طواف القدوم، لقدوم الخلق على المبيت، وقدوم السر على القديم الذي تقدم إلى العبد بنعمته، واستنزله في جواره، حتى يخرج من الأشياء إليه.

من مكة إلى عرفات:

ثم يخرجون من مكة إلى عرفات، وكذلك الأسرار إذا خلت بجوار الله تعالى في حرمه الآمن استدعاها للعرض عليه، لتعريفها مالها وما عليها، فتذكرت ما سلف لها، ويتذكرها خرجت عن قرب الجوار إلى مشاهدة ما سلف لها.

وعرفة أعظم مواقف الحج، لأنه عرض على الله، ووقوف بين يديه، وينزلون في طريقهم بموضع يقال له: «خيف بني كنانة» في منى، حيث نزل رسول الله ﷺ، وهو قبل

عرفة، ومثاله الأسرار إذا تهيأت للعرض على الله اعترضها في الطريق الخوف منه لا بد ولا محالة، وإذا خافت الأسرار لم تقنط، وتمنت على الله بحسن الظن عظيم المغفرة.

ويرحلون إلى عرفة، وكذلك الأسرار إذا دخلت مقام الخوف وحسن الظن بالتمني عليه تعالى، والرجاء فيه لاحت لها معرفة الله تعالى بما هو له أهل، فلا يزال حتى ينزل بها، فينزلون عرفة، وينتظرون زوال الشمس للوقوف، وهو شبيه بانتظار الأسرار حين حلت بمعرفة الله على الخوف والرجاء لما يرد عليها.

فإذا زالت الشمس أخذ الإمام في الخطبة، ومثاله: الإنذار بمجيء تجلي الملك الديان، ليتأهبوا لقدومه عليه، وتعليمه لهم الأدب بين يديه، وكيف يقفون له بالإجلال والتعظيم.

ثم يأخذون في الصلاة بعد الخطبة، وكذلك السر إذا تجلى ظهور الملك خضع وسجد لجلاله، وهي صلاة تحية لتجليه، لا على أنها مفروضة فحسب، لأنه لم يظهر لهم إلا وقت الواجب له عليهم، لأنه موطن عرض ومحاسبة في تمثل السر له، فلا يقدم أحد على الهدية التي هي النافلة لهيئة العرض والحساب.

ويقدمون العصر مع الظهر، يجمعونهما جمع تقديم، وذلك لأن من قدم بين يدي الله تعالى للمحاسبة والعرض لا يقطع طلب الخلاص بين يدي ملك الملوك. فإذا تمت الصلاة أخذوا في الوقوف والدعاء والإقرار بالذنوب إلى غروب الشمس، كذلك الأسرار إذا عرفت الله في مقام، فشهدت عظمته، تجلى مالها وما عليها، وما عمل العبد في حقه، وما واقع في عمره كله، حتى لا يبقى شيء من مخبآته إلا تذكره في ذلك المقام، فيقر بها لباريه تعالى، فلا يزال يدعو ويتضرع حتى يجد آثار صلح الباري، وكثيف ستره، وهناك تجد آثار معنى ما أوحى الله به إلى ملائكته في يوم عرفة من أنه تعالى يشرف على أهل عرفة إشراف إكرام، فينظر إليهم، ويقول لملائكته: «انظروا إلى عبيدي أتوني شعثاً غبراً»[1].

من عرفات إلى المزدلفة:

فإذا غابت الشمس نفروا إلى مزدلفة، وذلك إشارة في السر إلى غيبة حرارة المحاسبة والعرض على الأسرار والأرواح والنفوس، ووجود الفرح بغيبة ضوء كشف العورات،

---

(١) أخرجه البزار مطولاً وفيه إسماعيل بن رافع وهو ضعيف. والطبراني مطولاً عن عبادة بن الصامت وسنده صحيح.

ومخبآت النفوس، حتى لا تقول الخلائق للعبد: أف لك، أبكل هذا جاهرت ربك المحسن إليك؟

فإذا أسبل الله عليهم لبسته ألبست الأسرار أردية الستر الكثيف، وتغفرت بمغافر[1] المغفرة، فيوجهون إلى مزدلفة، ويصلون بها المغرب والعشاء بعد مغيب الشفق، لأنه حينئذ يغيب ضوء الشمس بالكلية، ويذهب حرها، وكذلك السر، بكمال الالتباس بالستر الكثيف، يصل إلى منازل الزلف والزلفى من الله عز وجل، وكذلك الحاج، يصل إلى مزدلفة بعد ذهاب الشفق.

فإذا وصلوا إلى مزدلفة جمعوا بين الصلاتين لأنهم حينئذ كمل تطهيرهم عن المخالفات، بزوال جميع حرارات الكد والتعب الحاصل من ثقل المحاسبة، فكانت السنة تأخير صلاة المغرب وجمعها مع العشاء، لهذه اللطيفة، لتكون الصلاة بعد كمال الطهارة، وفراغ السر من الكد والتعب الذي تقدم ذكره، ولذلك يغتسل الحاج بمزدلفة، وهي من الأغسال المستحبة في الحج، وهذا الغسل تأهب لنزول مزدلفة الزلفى، وهي منزلة رفيعة من القرب لا تنال إلا بفضل ورحمة ﴿أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ [سبأ: ٣٧].

المشعر الحرام ومنى:

ثم يبيتون بمزدلفة طول ليلتهم، فإذا لاح ضوء الصبح وقفوا بالمشعر الحرام إلى قرب طلوع الشمس، وكذلك الأسرار إذا ظهرت ونزلت محل القرب، ووجدت برد العفو والستر، نظرت إلى محارم الله، فذكرته عند أمره ونهيه، وهذا الذكر من أفضل الأذكار، أي ذكر الله عند أمره ونهيه، لأن الأسرار إذا ذكرت أمره ونهيه شعرت بالمحارم والنواهي، فهو ذكر في محل شعورها، كيلا تتدنس بعد التطهير، فلهذا كان الوقوف بالمشعر الحرام بعد المزدلفة.

ثم يدفع الحاج إلى منى، ويسرعون ببطن محسر، ومثاله: الأسرار إذا تذكرت بالمشعر الحرام أمر الله ونهيه في محل شعورها، نفرت عن ذلك وهربت عن أن تقع فيها - أعني المحرمات - التي تشبه بطن محسر الذي يسرع الحاج بالمشي فيه، لأن السر يتذكر المحارم فيفر عنها، ويتحسر على ما وقع له منها.

ثم يرمون جمرة العقبة من أسفلها، لأن موضع الحسرات في السر سفل، وإنما كان

(١) المغافر جمع مغفر، وهو الدرع.

هذا الرمي بعد هرويه من بطن محسر لأن مثالها في السر: أنه إذا شعر بذكر المحارم، وهرب منها، وتحسر، فإذا تذكر الذي أوقعه في المحارم والمخالفات، ورآه بسره وهو إبليس، رماه، لأن إبليس مع المحارم لا يفارقه، فيرد عليه الحاج وساوسه التي هي جمرات من جمرات جهنم، فتحرقه إذا ردها عليه، في سره وقلبه، يغضب الحاج على إبليس لغضب الله، والغضب جمرة تتوقد، ولذلك سميت «جمرات».

ثم يذبح، ومثاله: أنه إذا رمى وجه إبليس بجمراته تذكر من نفسه من يقبل وحي الشيطان، فإذا هي الصفات البهيمية التي لا تدري ماذا يراد بها، فيخدعه الشيطان لبلادتها، فيزكيها بالنحر والذبح، لكي يحصل لها الذكاء والفطنة بزكاتها.

ثم يحلق أو يقصر، ومثاله في السر: أن الدماء النفسية البهيمية إذا أهريقت في الله لتضييق مجاري العدو معها، قطعت العلائق التي يتعلق العدو بها عنه، وهي النواصي التي يعقد الشيطان عليها في ليل الغفلة، ونوم الحياة الدنيا ويقول: عليك ليل طويل، أي: أنك تعيش طويلاً، فاخلد إلى أغراضك، فإذا قطع العلائق من سره فقد تحرز من إبليس بجز ناصية الرق له، ولم يبق له من أعمال الحج إلا طواف الإفاضة بالبيت العتيق.

طواف الإفاضة:

فيتوجه الحاج إلى طواف الإفاضة، كذلك السر إذا تحلل من العلائق توجه حراً إلى بيت سيده، فيطوف به.

ثم يرجع إلى منى فيقيم بها ثلاثة أيام أو يومين، ليتم رمي الجمار والنحر والذبح أيام التشريق، ومثاله في السر: أن الأسرار إذا طافت طواف الإفاضة بعد حريتها، استشعرت الرجوع إلى مباحاتها، فترجع إلى منى، فتستقصي تمام رمي الجمار، لأن النفوس إذا رجعت إلى المباحات من الحج فإنها تتمنى الرجوع إلى المحرمات، فيستقصي ذبحها، ويرمي بقية الجمار مرة بعد مرة، تأكيداً لحبس النفوس بزمام التقوى إذا رجعت إلى أوطان المباحات.

طواف الوداع:

فإذا تمت أيام التشريق فقد تم حجه، فيطوف طواف الوداع، ويرجع إلى بلاده، ومثاله: أن السر إذا تمت وظائف حجه، ولم يكن للبشرية بد من الرجوع إلى أغراضها ومباحاتها، طاف ببيت ربه طواف المحب إذا ودع محبوبه، وترك سره عنده، فهذا الطواف إنما هو طواف تذكرة بالرجوع إليه، وإن كان في ظاهره وداع فرقة، فإنه أعظم للحرمة،

وأشد تأكيداً في المحبة، كما قال ﷺ: «زر غباً تزدد حباً»[1]. ولأن كثرة الجلوس عند المحبوب يوجب كثرة الأنس والإدلال، ويخاف حينئذ على المحب أن يقع في مخالفة المحبوب لكثرة الإدلال، ولأن النفوس تمل بعض أغراضها، فإن لم ترجع واقعت محظوراً بحضرة بيت الملك المحبوب، وفي جواره، وقد ورد في الخبر أن الذنوب تضاعف في مكة كما تضاعف الحسنات لهذه العلة التي ذكرناها، فافهم، فنسأل الله العفو عنا إنه قريب مجيب.

أنواع الحج:

ثم اعلم يا أخي أن الحج على ثلاثة أضرب: إفراد بالحج وقران بالعمرة والحج معاً، وتمتع بالعمرة إلى أيام الحج ثم يحج.

والحج بالإفراد أفضلها وأصعبها، والتمتع والقرآن أخف، وقد ذكر الله تعالى الأنواع الثلاثة فقال في القرآن: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦] وقال في التمتع: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٦]. وقال في الإفراد: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧].

فمثال الحج مفرداً في أسرار الحج: الخروج من أمور الدنيا بالكلية، بالقصد إلى الله تعالى دون تعريج على أي شيء من الأشياء دونه، والعزم على التضييق على النفس طول مدة الحياة الدنيا، لئلا يفارقها ذكر بها، وهذا لا يطيقه إلا كبار العارفين، وهو أشبه شيء بالموت وما وراءه من أمور القيامة والآخرة.

العمرة:

والعمرة مأخوذة من الزيادة، وفي لفظها معنى من العمر، وهو: بقاء رمق الحياة على النفس، لأنه لولاها لم تعمر الدنيا، ولذلك قال تعالى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ﴾. والتمتع هو الاستمتاع بالمباحات الشرعية ﴿إلى﴾ أيام ﴿الحج﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]. ثم يعود إلى المباحات.

وكذلك القرآن فيه إشارة إلى اقتران الرفق مع الشدة كما ورد: «الإيمان شدة في لين، وسماحة في يقين». وكما ورد في الخبر: «إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحبأن تؤتى

---

(١) أخرجه أبو يعلى عن سعد بن عبادة.

عزائمه»[1] وقال ﷺ في حجة الوداع: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدى ولجعلتها عمرة، فمن كان منكم ليس معه هدى فليتحلل وليجعلها عمرة» فقيل: يا رسول الله، ألعامنا هذا، أم للأبد؟ فقال: بل لأبد الأبد»[2]. وكان قد أفرد بالحج.

زيارة النبي ﷺ:

وقد أهل النبي ﷺ بالحج والعمرة معاً إبقاء على النفوس، ورحمة بها، بشرط ألا يخرج إلى حد الإسراف، الذي لا يحبه الله عز وجل، ولذلك استحبت زيارة النبي ﷺ بعد الحج، لأن السر إذا طاف طواف الوداع كما تقدم، ورجع إلى أوطان مباحاته، يكون رجوعه إلى مباحاته على هدي السنة لا باتباع الهوى، لأن النبي ﷺ هو رأس السنة، ومنه تفرّعت، بل هو السنة كلها، فلهذا استحبت زيارته بعد أداء الحج، لتكون تلك الزيارة رجوعاً إلى مصابيح سنته ﷺ. وقد كان رسول الله ﷺ يقول: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»[3].

نسأل الله أن يكتب لنا من كل خير حظاً ونصيباً، بمنه وفضله، آمين.

وليكن هذا آخر ما أراد الله تسطيره في هذه الأوراق، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

* * *

(1) أخرجه ابن ماجه عن أبي هريرة.
(2) أخرجه البخاري. وأحمد مطولاً عن ابن عباس وابن عمر.
(3) أخرجه البخاري عن أنس وابن مسعود.

خلاصة علوم الإسلام

لأبي المواهب عبد الوهاب الشعراني الأنصاري

تحقيق

عبد القادر أحمد عطا

بسم الله الرحمن الرحيم

زبدة العلوم

كتاب خلاصة علوم الإسلام

اسمه الأصلي «نتيجة العلوم» وقد اخترنا له اسم «خلاصة علوم الإسلام» لمناسبته لموضوعه، وتقريباً له لعقلية العصر.

وهو مخطوط بالمكتبة الأزهرية تحت رقم (٩١٧) أخلاق وفضائل، وقد كتب في أواخر القرن الحادي عشر على يد طونجانلي حسين. ويقع في عشرين ورقة في حجم الثمن، وخطه بين الفارسي والنسخ، وعليه محضر سماع لمفتي زاده.

موضوع الكتاب:

كان الإمام الشعراني إلى جانب كونه صاحب مؤسسة تجمع طلبة العلم، ومريدي طريق التصوف، يعنى عناية فائقة بالطبقة الكادحة في مصر، يرعاها مادياً وثقافياً، ويرسم لها طريق الحماية من عسف الترك واستغلالهم.

وهو يقول في مقدمة كتابه: انه كتبه لجماعة من أخوانه المتعبدين وأهل الحرف. ويغلب على الظن أنه كتبه للمتعبدين في زاويته أو على طريقته في بلاد الدولة الأخرى، لأن الانقطاع للعبادة لا يدع لهم وقتاً يشتغلون فيه بطلب الفروع، كما أن أهل الحرف كذلك لا يسعهم الوقت لحفظ المسائل، وتتبع الدقائق. وهو سعي محمود يتفق مع اتجاه الإمام الشعراني على طريق دعوته كمرشد إسلامي أصيل.

ومن أجل اختصار الزمن على المتعبدين والمحترفين، فقد ركز ما كتبه عن ثمانية

علوم إسلامية هي التفسير وعلم القرآن والفقه وأصوله وأصول الدين والنحو المعاني والبيان والتصوف تركيزاً يسترعي الإعجاب والانتباه.

فهو يتحدث عن كل علم من هذه العلوم حديثاً منفرداً يبين فيه ما لا بد منه للمسلم مما تتوقف عليه نجاته أمام ربه. وما لا فائدة منه للناس عند ربهم، ولا يغفل أن يزودهم بخلاصة كل علم بحيث لا يدعهم نهباً للجهل وعجمة القلب واللسان، بل يتركهم بعد قراءة كتابه قادرين على مجاراة العلماء، وعلى تعليم الجهلاء في وقت قصير، بلا مزيد من الكلفة والعناء.

خصائص الكتاب:

هذا الكتاب على صغره يعتبر ذا خصائص متميزة بين كتب التراث لا نجدها في مثيلاتها ولا في المؤلفات الحديثة إلا نادراً وبصورة غير مجتمعة ولا مكتملة.

فعلى الرغم من ان الشعراني أدمن الطواف بين هذه العلوم الثمانية وغيرها طواف مدقق باحث عن الفروع والدقائق الخفية فيها إلا انه بكتابه هذا يكشف لنا عن عقلية متحررة من تقاليد العلماء السابقين واللاحقين. إذ أن العلماء قد درجوا على الاعتزاز بالتفريعات حتى اخترعوا في الفقه وقائع وافترضوها واقعة وأجابوا عنها، وخرجوا بهذا العمل عن حد العقل أحياناً، واختلفوا في صغائر مسائل العلم، وتبادلوا المناظرة إثباتاً للبراعة لا بحثاً عن الحقيقة، حتى سموا مثل هذه المناظرات تدريباً على الأدلة، واستطردوا في بحثهم في علم من العلوم إلى جدل اليونان الوافد حتى اختفى موضوعه البحث الأصلي بين أقاويل هذا الجدل. فوقف الشعراني في نهاية المطاف من كل أولئك موقف الوعي الأصيل الذي يبحث في صراحة عما يفيد الإنسان من هذه المناقشات ومالا يفيده. فهل يقول للجميع: اضعتم وقتكم فيما لا يجدي. وهذا هو ما يجدي، لا سيما بين الذين لم تتهيأ لهم سبل طلب العلم من فراغ الوقت، ومواتاة العقل المتحرك، فهؤلاء يضارون بلا شك بهذه المناقشات حتى تخرجهم في كثير من الأحيان إلى الضلال والزلل.

وآية ذلك ما قاله الواعظ الكبير ابن الجوزي:

«قدم إلى بغداد جماعة من أهل البدع الأعاجم، فارتقوا منابر التذكير للعوام، فكان معظم مجالسهم انهم يقولون: لي في الأرض كلام، وهل المصحف إلا ورق وعفص وزاج، وأن الله ليس في السماء، وأن الجارية التي قال لها النبي ﷺ: أين الله كانت خرساء، فأشارت إلى السماء، أي ليس هو من الأصنام التي تعبد في الأرض. ثم يقولون: أين الحروفية الذين يزعمون أن القرآن حروف وصوت؟

«فما زالوا كذلك حتى هان تعظيم القرآن في صدور أكثر العوام، وصار أحدهم يسمع فيقول: هذا هو الصحيح، وإلا فالقرآن شيء يجيء به جبريل في كيس».

ولئن كان الشعراني قد أتى من جانب التصوف فهو يجمل في هذا الكتاب مذهبه الصوفي بما لا يدع بعده مقالاً لمنقول عليه بما ليس من مشربه ولا منهجه.

فالتصوف عنده وجدان ناشيء عن العمل بالكتاب والسنة، وليس شيئاً غير هذا. وما يقال عنه علوم الباطن خطأ عند الشعراني، لأنها علوم مهما بلغت من الدقة واللطافة فقد ظهرت وسطرت في الأوراق، فكيف يقال عن الظاهر أنه باطن؟

وإذا كان من نتائج صفاء الروح أن تشف حتى يحس صاحبها ببعض أسرار الكون، فالحديث عن تلك المغيبات عن الغير خيانة عند الشعراني، وليست مفخرة يفخر بها المضللون.

والكرامات عند الشعراني لا دخل للعبد فيها وإنما هي فعل الله تعالى كالمعجزات لا دخل للرسل فيها، وفوق كل ذلك فأعظم الكرامة: التوفيق للعمل على منهاج الكتاب والسنة.

والتصوف يهدف أساساً إلى تنقية النفس وتقويم الأخلاق.

وهنا يتألق فكر الشعراني عن نظرية هي الحق في موضوع الأخلاق عند الصوفية. فالذين يرون أن الأخلاق الرديئة تعالج وتزول من نفوس أصحابها لم يسلكوا طريق التصوف على حقيقته، ولم يعرفوا نفوسهم كما يجب أن يعرفها المبتدئون في السلوك الصوفي.

فالأخلاق الرديئة والحسنة كلها موجودة في عجينة الإنسان الأولى، وغاية ما في الأمر أن رياضة النفس وجهادها، والسلوك على مقتضى الكتاب والسنة يحد من الأخلاق والصفات الرديئة ويجعلها معطلة عن العمل، ويفتح المجال للأخلاق الجميلة لتنطلق وتعمل.

وأي خلل في السلوك، أو نكسة فيه، أو ارتداد عن منهاج الكتاب والسنة يعكس القضية، إذ يعطّل الأخلاق الحسنة، ويفتح الباب واسعاً للأخلاق الرديئة.

فكل من يدّعي علاج الرياء والحسد والنفاق فهو مخطىء، لم يسلك طريق القوم، ولم يدرك حقائق التصوف.

وهذه صحيفة الشعراني الفكرية النقية يبديها من خلال تفكيره الصوفي الذي ركزه ولخصه في هذه الصفحات التي كتبها عن التصوف، لا غبار عليها، ولا تجديف ولا تخريف.

منهج التحقيق

١ ـ استنسخنا الكتاب من أصله المخطوط الذي كتب بخط النسخ الجميل، وبحمد الله لم يكن في الأصل خطير من الغلط ولا كثير منه.

٢ ـ وضعنا عناوين للموضوعات، إذ أن المؤلف كتبه نسقاً واحداً لا عناوين له.

٣ ـ غيرنا اسمه ليتناسب مع الموضوع، وليلائم روح العصر.

٤ ـ خرجنا الآيات القرآنية وصححناها، وكذلك الأحاديث النبوية.

٥ ـ علّقنا على ما يستحق التوضيح والبيان من كلام المؤلف.

٦ ـ كتبنا دراسة وافية للدفاع عن الشعراني نرجو أن تؤتي ثمارها في إنصاف هذا الرجل العظيم.

ونرجو من الله تعالى أن يخلص عملنا له وحده، وان ينفع به الناس إنه قريب مجيب الدعوات، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه ومن والاه.

القاهرة في غرة جمادى الأولى سنة ١٤٠٠ هـ ١٨ مارس سنة ١٩٨٠ م.

عبد القادر أحمد عطا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد. . .

فلما رأيت الناس قد قصرت همتهم عن حفظ متون الكتب على ظهر قلب، وقل انتفاعهم بما يتورطون في مطالعته من الشروح والكتب المطولة بالفروع العاطلة، التي لا يسأل أحد عنها إلا في النادر، ولا يعلمون بها، استخرت الله تعالى في ذكر زبد تلك العلوم لجماعة من إخواننا المتعبدين، وأهل الحرف النافعة من المؤمنين، تقريباً للطريق عليهم، لعدم تفرغهم للاشتغال كما يشتغل طلبة العلم من الفقهاء، «وإنما الأعمال بالنيات، وإنما كل امرىء ما نوى».

واعلم أن من جملة العلوم التي أعتني بالتأليف فيها ثمانية: علم التفسير، وعلم القرآن، وعلم الفقه، وعلم أصول الفقه، وعلم أصول الدين، وعلم النحو، وعلم المعاني والبيان، وعلم التصوف. ولنذكر زبدة كل علم منها على الترتيب إن شاء الله تعالى فنقول:

علم تفسير القرآن

أما زبدة علم تفسير القرآن فاعلم يا أخي أن الله عز وجل لم يكلف نفساً إلا وسعها، وقد أنزل الله كتابه العزيز بلغة واسعة تسع أفهام الخلق أجمعين، فلا يكلف الصديق رضي الله عنه أن يعمل بما فهمه رسول الله ﷺ عن القرآن، مما هو خاص برتبة الرسالة، ولا يكلف أحد من الصحابة أن يعمل بما فهمه الصديق رضي الله عنه مما هو خاص برتبة الصديقية، ولا يكلف العالم أن يعمل بما فهمه أكابر الأولياء مما هو خاص بدائرة الولاية الكبرى، ولا يكلف آحاد المؤمنين أن يعمل بما فهمه أكابر العلماء، وهكذا. . .

فما تخطى أحد فهم أحد لقصوره، لأنه ما تجلى علم من القرآن متساو لاثنين من الخلق أبداً، إذ هو البحر الذي لا ساحل له، ومن أي الجوانب أتيته وجدته بحراً، ولا يرسخ في قلب كل مؤمن إلا ما أوقره الله تعالى في قلبه من الفهم، فلا فائدة إذن لأحد في مطالعة تفسير غيره أبداً، كائناً من كان، لأنه إما فوق درجته، وإما دونها.

فإن كان فوق درجته فلا يتعقله قلبه، وإن كان دونها فليس له أن ينزل إليه أدباً مع الحق، وإما مطالعة المتساوي ـ لو فرض ـ فلا فائدة فيها.

ومرادنا بهذا التقسيم مطالعة الأمور الخفية التي طريقها الاستنباط، بخلاف الأمور الصريحة، كالأمر بالصلاة والزكاة، وحقوق الوالدين والجيران، ونحو ذلك، فإن هذا يجب العمل به على كل أحد من أعلا وأدنى.

ثم يتفاوتون في مشاهدة الحقوق وعظمها في أنفسهم لا غير.

وأما علم الآيات المتشابهات، وآيات الصفات، والحروف في أوائل السور، ونحو ذلك مما هو خاص بأهل الكشف الصحيح، والتعريف الصريح، فلا ينبغي لأحد من المقلدين وغيرهم القطع بمعنى شيء منه. ولكن من أعطاه الله تعالى فهم بعض معانيه قال به، من غير حصر المعنى فيه، ومن لم يعطه الله تعالى شيئاً من ذلك، يكل علمه إلى الله تعالى، ويؤمن به على علم الله تعالى فيه. إذ لا يعلم مراد القائل حقيقة إلا القائل.

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول: «أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني، إن قلت في كتاب الله تعالى ما لم يرده». فعلم (أن) من الأدب لكل من فسر شيئاً من القرآن أن يقول: الذي فهمته من هذه الآية كذا وكذا لا غير، إلا أن يكون ذلك بتعريف من الله تعالى.

وقد خاض قوم كثيرون في الكلام على المتشابه وآيات الصفات بعقولهم، فضلوا وأضلوا، وكان الأولى لهم الأدب مع الله تعالى، ومع رسلهم عليهم الصلاة والسلام، فإنهم جاءوا بها كما هي من الله تعالى، ولم ينقل عن أحد منهم تأويلها، فتأويلها إذن سوء أدب عند أهل الله عز وجل.

مع أن ذلك مؤذن أيضاً بعدم فصاحة الشارع، وقصوره عن البيان، فلا يليق التأويل إلا لكلام عامة المسلمين لقصورهم ولنقصهم، ولكن الحق أن للعالم أن يؤول للعامة ذلك بقدر ما يقوم به التعظيم في قلوبهم لله عز وجل، وقد ذكرنا أقسام المؤولين في مقدمة كتابنا المسمى «كشف الغمة عن جميع الأمة» في بيان أدب طالب العلم فراجعه في أن جميع أصحاب العقول المحكمة لا يليق بأحد منهم التصدر لتفسير شيء من الآيات المتشابهات وآيات الصفات وما الاها من الأحكام الدقيقة أبداً.

وقد كتب رجل مصحفاً على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكتب تحت كل آية تفسيرها، فدعا به عمر رضي الله عنه، وضربه بالدرة، ثم قرض المصحف بالمقراض، وقال له: «مثلك يتكلم في معاني كلام الله عز وجل»؟ ولذلك لم يضع أحد من السلف تفسيراً قط، لعلمهم بأن معانيه لا تنحصر ولا تتقيد على فهم واحد دون آخر، وجميع ما نقل عن ابن عباس وغيره إنما هو كنقطة من البحر المحيط، ولم يتكلم رضي الله عنه قط

على رؤوس الأشهاد في شيء من أسرار القرآن، إنما كان يتكلم في الحلال والحرام والفضائل، ليحيط بذلك علماً من هو قريب العهد بالإسلام من أجلاف العرب وغيرهم.

وسمعت شيخنا علياً الخواص رضي الله عنه يقول: لا يسمى عالماً إلا من عرف معنى كل لفظ جاءت به الشريعة، وعرف بأي لسان يتكلم الشارع، ولمن خاطب، وما خاطب به، ومن المخاطب، ومن المخاطب، ولمن ترجع الأفعال، ولمن تنتسب الأقوال.

فمن لم يعلم بأي لسان تكلم الشارع، وحصل الأمر على ظاهره، ولم يرد علم ذلك إلى الله ورسوله، واعتقد نسبة ذلك النعت إلى الله تعالى مثل نسبته إلى نفسه فهو جاهل، وهو من أضعف الفرق الإسلامية، لأنه على النصف من الإيمان، لقبوله نعت التشبيه دون نعت التنزيه، والله غفور رحيم.

* * *

علم القرآن

وأما زبدة علم القرآن فاعلم ـ رحمك الله ـ أن السلف الصالح إنما وضعوه دفعاً للاختلاف في القرآن، كما وقع لعمر بن الخطاب رضي الله عنه مع أُبَيّ بن كعب، حين سمعه يقرأ سورة الفرقان على غير ما سمعها هو من رسول الله ﷺ، فأخذه ومضى به إلى رسول الله ﷺ، فأمر صلى ﷺ كل واحد منهما أن يقرأ، فقرأ كل واحد بما حفظه، فقال لكل منهما: «هكذا أنزلت، أن القرآن أنزل على سبعة أحرف»[1].

ولا شك أن القبائل كانت ترد على رسول الله ﷺ لتأخذ عنه القرآن، وكان ﷺ يترجم لكل قبيلة بحسب لغتها، من قبائل قريش، وكنانة، وحمير، وهذيل، وطيء، وجرهم، ومدحج، وغيرها. فربما مد ﷺ قدر الألف والألفين أو الثلاثة لمن لغته كذلك، وربما فخم لمن لغته التفخيم، وربما أمال لمن لغته الإمالة، وربما أدغم لمن لغته الإدغام، وربما رقق لمن لغته الترقيق، وهكذا في سائر وجوه الآداب والأحكام التي أمرنا الله بها أو نهانا عنها في القرآن، وكلها واحدة في جميع القرآن لا تتغير.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في القرآن ٦/ ٦٥ وفي المسند ١/ ٧١ أن عمر رأى رافعا يقرأ وهو في الصلاة سورة الفرقان فكاد يساوره وهو في الصلاة . . الحديث ، فلعل القصة وقعت مرتين ، مرة مع رافع ، ومرة مع أبي بن كعب.

فلما وقع الضبط، وأخذ القراء عن القبائل، ضبط كل إنسان ما سمع فقط، إذ القياس هنا ممنوع، وجميع التراجم كلها قرآن منزل، أوحى به إلى رسول الله.

ولو جاز أن يترجم عن القرآن بغير ما أوحى به لم يخرج عن مرتبتين، لأنه إما أن يترجم بلفظ مساو للوحي، أو دونه. فإن كان دونه لم يصدق عليه أنه ﷺ بلغ ما أنزل إليه من ربه، وذلك محال في حقه ﷺ. وإن كان مساوياً فأي فائدة في العدول عن الموحى من الله إلى لفظ مساو له، فتأمل.

فما بقي إلا أنه ﷺ بلغ ما أنزل إليه من ربه بحروفه الحاملة للمعاني القديمة.

وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: «ما أنزل الله عز وجل كتاباً إلا بالعربية». إذ هي أوسع اللغات، ولكن كان جبريل يترجم لكل نبي بلسان قومه، وليس في القرآن العظيم إلا لغة العرب، وربما وافقت اللفظة منه لغة غير العرب، والأصل عربي لا يخالطه شيء.

ثم اعلم أن هذه الكيفية التي عليها قراء زماننا وهو: أن القارىء يقرأ كل آية يجمع ما فيها من اللغات، ثم ينتقل إلى الآية الأخرى كذلك، لم يبلغنا وقوعها عن رسول الله ﷺ، ولا عن أحد من أصحابه رضي الله، أو أحد معين في مجلس واحد.

ثم لا يخفى أن المراد الأعظم من إنزال جميع الكتب الإلهية إنما هو الاتعاظ والعمل بها، وإلا فأي ثمرة لمن يقرأ بالمد والإمالة والتفخيم والترقيق وغيرها وهو غافل القلب عن الله عز وجل، جيفة بالليل، حمار بالنهار. متكالب على الدنيا، يمزق عرض كل من زاحمه عليها، لا تخف عليه تلاوته إلا لعرض من الدنيا، وكل حرف منه يناديه: أنا رسول الله إليك لتعمل بي، وتتعظ بمواعظي، فتأمل ما قلته لك، وأنت أعلم بقصدك ونيتك والسلام.

فعلم أن من كان يريد وجه الله تعالى بتلاوة القرآن لم يعول على معرفة رواياته، إنما يعول على معرفة حدوده، ويكفي من كان قصده ذلك رواية واحدة، والله على كل شيء شهيد.

علم الفقه

وأما زبدة علم الفقه فاعلم يا أخي أن الله عز وجل لم يكلف أحداً بالعمل إلا بقدر فهمه كائناً من كان، ولم يكلف أحداً بما فهمه غيره أبداً، إنما يكلف جميع عباده بما صرحت به الشريعة فقط. وتعني أن الإنسان المتعبد، والمؤمن المحترف يعمل كل منهم بما ورد في الكتاب والسنة صريحاً لا استنباطاً، إذ أن جميع ما استنبط ليس بشرع معصوم الله تعالى، إنما هو تشريع عباده، ولذلك وقع الخلاف فيه دون الصريح، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ

كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]. يعني أن الاختلاف من جهتهم.

فالمطلوب إنما هو: ما شرعه الله تعالى صريحاً، إذ هو العلم الذي يسأل عنه العبد في الآخرة، وجميع ذلك لا حرج فيه على أحد، ولا مشقة في تحصيله، ولا يحتاج في معرفته إلى صرف عمر، ولا تعطيل أسباب في تحصيله، كما هو مشاهد في تحصيله.

فمن عمل بصريح السنة كما ينبغي، أعطاه الله عز وجل فرقاناً. قال الله تعالى: ﴿إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٩]. يعني: ميزاناً في قلوبكم تفرقون به بين الحق والباطل، وتزنون به كل ما ورد عليكم من أمر دينكم ودنياكم.

فأهل هذا الفرقان يفصلون في جميع الخصومات على وجه الحق، سواء خالف ذلك مذاهب المجتهدين أو وافقها. فما طال الطريق على طلبة العلم في تحصيله، واحتياجهم إلى حفظ فروع ولدتها الأفكار في أيام فراغ البال إلا من عدم التقوى، تصديقاً لكلام الله عز وجل، فإنه تعالى وعد كل من اتقاه، وعمل على ما شرعه على لسان نبيه: ان يجعل له فرقاناً.

فمن عمل بما علم، ولزم أدب أهل الله عز وجل، لم يحتج إلى شيء من دقائق فروع البيوع والدعاوى ونحوها، لأنها كلها مبنية على وقوع المشاحة[1]، وطريق أهل الله عز وجل: المسامحة والإيثار[2]، وسخاوة النفوس في جميع الحقوق التي لهم، ولذلك لم يعهد قط أن أحداً من الصادقين رؤي عند حاكم يدعى عليه عنده أنه ضيع حقاً لأحد من شركائه، أو زوجته، أو جاره، أو غيرهم، بل أن لم يتيسر لأهل الله عز وجل وفاء ما عليهم من الحقوق، اعترفوا بها لأربابها، وألانوا لهم القول.

وقد وقع لمولانا الرفاعي رضي الله عنه أنه عمر خرابة، فلما فرغ من بنائها، وانتقل بأهله وعياله فيها، جاء شخص في ذلك اليوم وادعى أن تلك الخرابة له، وقال له: اخرج من داري. فعزل الشيخ متاعه في الحال، وأمر بإخراج عياله، فلما صار خارج الدار، رجع ذلك الرجل وقال: ليس لي فيها حق، وإنما أردت اختبارك في ميلك إلى الدنيا، وإلى زينتها، ومحبتك الإقامة فيها، رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

---

(١) المشاحة: مفاعلة من الشح، وهو شدة البخل، والمراد محاولة كل من المتبايعين اقتطاع شيء من حق صاحبه.

(٢) الإيثار: تفضيل الغير على النفس بما في اليد من الخير.

والتحقيق أن الناس في اشتغالهم على قسمين: قسم يريد اللحوق بأهل الله تعالى، ودخول حضرة الحق تعالى، فهذا لا يحتاج إلا إلى ما يقيم به فرضه وسنته فقط. وقسم يريد اللحوق بالعلماء، ودخول حضرة أحكام الله تعالى، فهذا ينبغي له أن يشتغل على طريقة أهل هذا الفن.

لأن أهل حضرة الله الخاصة ليس عندهم نزاع، ولا فصل خصومات، ولا دعوى لشيء، مما يقطع نزاعهم. وأهل حضرة الأحكام من وراء حجاب الأحكام، وأصحاب الحجاب من لوازمهم الخصومات والمنازعات، فيحتاجون إلى ما يفصل بينهم، ويرفع النزاع المؤدي إلى الفساد، وكل ميسر لما خلق له، والسلام.

* * *

علم أصول الفقه

وأما زبدة علم أصول الفقه، فجميعه يرجع إلى معرفة مراتب الأوامر والنواهي، ويجمع كل منها مرتبتين: تخفيف، وتشديد. فمن وجد في نفسه ضعفاً أخذ بالتخفيف، ومن وجد في نفسه قوة أخذ بالتشديد.

وجميع أحاديث الشريعة، وما انبنى عليها من أقوال المجتهدين إلى يوم الدين، لا تخرج عن هذا. فما ثم حكم يناقض حكماً آخر أبداً، ولا يصادمه، وهذ أمر أطلعني الله عز وجل عليه، لم يظفر به أحد من المجتهدين. فمن تحقق به لم يرَ في شريعة رسول الله ﷺ خلافاً قط، ولا في كلام أحد من علماء أمته كما قررناه في مقدمة كتابنا «كشف الغمة عن جميع الأمة».

وإلى هاتين المرتبتين اللتين ذكرناهما أشار العلماء بتقسيمهم أحكام الدين إلى: واجب، ومندوب، وحرام، ومكروه، ومباح. وإلا فالأصل أن الأمر من جهة الشارع واحد، يجب امتثاله قطعاً. فللأقوياء من الأمة أن يجعلوا المندوب في مرتبة الواجب في الاعتناء والتأكيد، ولهم أن يجعلوا المكروه كراهة تنزيه في مرتبة الحرام، تنزهاً عنه في حق أنفسهم، وفي حق من استفتاهم ممن يريد أن يستبرىء لدينه.

وسبب تقسيمهم هذا: نظرهم في الآثار المرتبة على فعل الأمر، واجتناب النهي من الصلاح والفساد. فما رأوا ذهاب شعار الدين بتركه من الأوامر أبقوه على الوجوب، كالصلاة، ونصب الأئمة ونوابهم. وما رأوا كثرة الفساد بفعله من المنهيات أبقوه على التحريم، وأجمعوا عليه، كالزنا، والغصب، وأخذ الرشوة، ونحو ذلك.

وإلا فأين مرتبة النهي عن الاستنجاء باليمين مثلاً عند الناس من مرتبة تحريم غصب أموال الناس بالباطل، والفسق بنسائهم وبناتهم، وكل منها ورد النهي عنه.

ومن أراد معرفة ذلك فلينظر في الأحاديث الواردة في ذلك النوع المأمور به، والمنُهي عنه قلة وكثرة، ليعلم يقيناً: أن كثرة الأمر بالشيء تدل على شدة الاعتناء به، وكذلك تكرار النهي.

فلولا علم الشارع كثرة ميل الناس إلى الوقوع وزوال شعار الدين بترك ذلك الفعل أو فعله، لما بالغ في الأمر به أو الزجر عنه. ولهذا لم يبلغنا قط أنه ﷺ نهى عن أكل العذرة، اكتفاء بنفرة الطباع منها، وعدم الميل إلى أكلها.

وأما مرتبة المباح فهو اصطلاحاً: ما استوى طرفاه، لسكوت الشارع ﷺ عنه، ولعدم التعرض له جملة بفعل أو ترك، أو نهي أو أمر، وهو للعامة تنفيس من الله عز وجل لهم من مشقة التكاليف، لأن نفوسهم لا تطيق التحجير على الدوام، فكان ذلك رخصة الله عز وجل.

وأما العارفون فمشهدهم: دوامهم تحت الأمر والنهي، لا ينفكون عنه طرفة عين، لعلمهم أن عليهم في كل لحظة نصيب من العبودية يؤدونه، فلا يوجدون إلا في امتثال أمر، أو اجتناب نهي، وإن بطلت حركة ظاهرهم فباطنهم مشغول، ولا يجدون لذلك كلفة، كما لا يجد المتنفس مشقة في دخول النفس وخروجه، فصورة المباح عندهم عبادة، كما قالت عائشة رضي الله عنها: أنه ﷺ كان يمزح مع النساء والصبيان، ويأتي النساء[١].

فعلم أن مرتبة المباح حقيقة إنما هي للحق تبارك وتعالى، الذي يفعل ما يشاء، فليس ذلك من حقيقة العبد، لأن المباح مكر من الله تعالى بعباده، واستدراج لهم، لينظر كيف يعملون، هل يقفون عند حدهم، ويلزمون الأدب، أم كيف يعملون به ويزاحمون الصفة الإلهية نسأل الله العافية واللطف، فاعلم ذلك.

وأما الإجماع فيرجع إلى مسائل يسيرة أجمعت عليها الأمة فيما مضى، ويحرم على

---

(١) إنما يكون المباح عبادة إذا قارنته نية القربة الى الله. فالمزاح الشرعي للتخفيف عن النفس حتى لا تمل، ولتألف الممزوح معه، والأكل بنية القوة على الطاعة، ولبس الجميل لإظهار نعمة الله، وإتيان النساء للعفة والإعفاف وتحصيل الولد الصالح، وهكذا جميع المباحات إذا اقترنت بالنية الصالحة صارت عبادة لها ثوابها، أما إن وقع المباح بلا نية فلا ثواب ولا عقاب.

الأمة خرقه، لا سيما إذا كان الخارق ممن يتبع على ذلك، كالملوك والعلماء، فإن التحريم يشتد بذلك.

فعلم أنه ليس لأحد أن يتظاهر بفعل شيء أجمع السواد الأعظم على خلافه، كأن يصبح الناس صائمين، فيصبح هو مفطراً، أو بالعكس، كما يقع في ذلك من في عقله شيء، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

وأما القياس فيرجع إلى قياس حكم مسكوت عنه على حكم منطوق به في الشريعة. وقد اختلف علماء الشريعة في العمل به. فطائفة منعت العمل به مطلقاً، تخفيفاً على الأمة، وأدباً مع الشارع ﷺ. وطائفة أجازت العمل به، وطائفة استحبته.

وكان الإمام أبو المعالي وغيره يقولون: القياس ليس من الدين، وبذلك أخذ أهل الله تعالى. ودليل ذلك: أن القياس في أحكام الله تعالى ممن ليس يبين زيادة حكم في دين الله تعالى بالرأي، فإنه طرد علة، وما يدريك، فلعل الله لا يريد طرد تلك العلة، ولو أرادها لأبان عنها على لسان نبيه ﷺ، فكان يبين لأمته طردها.

هذا إذا كانت العلة مما نص الشارع عليها في قضية، فما ظنك بعلة يستخرجها الفقيه بفهمه ونظره، من غير أن يذكرها الشارع ﷺ، ثم بعد استنباطه لها يطردها، فهذا شرع لم يأذن به الله تعالى.

وأما دليل من جوز القياس أو ندب إليه فهو: أنه ﷺ قال: «العلماء ورثة الأنبياء». وقال ﷺ: «من سن سنة حسنة فله أجرها، وأجر من عمل بها». فأخبر ﷺ أنهم في منازل الأنبياء، من حيث أن الشارع قررهم على ما اجتهدوا فيه، ورأوه حسناً من الأحكام، فهو تشريع عن خبر الشارع، فلهذا قررنا أن لكل مجتهد نصيباً من التشريع، كما أن كل نبي معصوم، وتعبد الله عز وجل الأمة بهذا التشريع والاستحسان، ليحصل لهم نصيب من التشريع، وتثبت لهم فيه القدم، فلم يكن يتقدم عليهم في الآخرة سوى نبيهم ﷺ، فيحشر علماء هذه الأمة في صفوف الأنبياء والرسل، لا في صفوف الأمم، وقد بسطنا الكلام على ذلك في كتابنا «الاقتباس في معرفة أحكام القياس» والله عليم حكيم.

وأما الاجتهاد فيرجع إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: بذل الوسع في تحصيل الاستعداد الباطن، حتى يحصل لصاحبه به قبول التنزيه الإلهي الخاص الذي يلقيه الحق تعالى إليه من العلوم الدينية، على وفق الشريعة المطهرة، حتى لو عرض ذلك العلم على رسول الله ﷺ قرر حكم المجتهد وإن أخطأ،

وأثبت له الأجر مع الخطأ، فما أخطأ من أهل هذا النوع أحد إلا في الاستعداد. فلو بلغ في الاستعداد غايته ما أخطأ أبداً. وهذا هو الاجتهاد عند أهل الله عز وجل.

النوع الثاني: بذل الوسع في طلب الدليل على نفس الحكم في المسألة الواقعة، لتشريع الحكم في النازلة من وجوب أو تحريم أو فساد أو صحة ونحو ذلك، فإن ذلك شرع لم يأذن به الله، ولا أمر به أحداً من الأمة، ومن هنا امتنع ابن عباس رضي الله عنهما أن يجعل من وقع في عرضه في حل، وقال: أعوذ بالله أن أحل ما حرم الله تعالى، ان الله قد حرم أعراض المسلمين فلا أحلها، ولكن غفر الله لك يا أخي.

وهذا دلالة على غزارة علمه رضي الله عنه، وهذا كان اجتهاد السلف الصالح رضوان الله عليهم، فإنهم كانوا يقولون: إذا خالف كلامنا صريح السنة فارموا به واعملوا بالسنة، وقال الإمام أحمد أو لأحد كلام مع كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؟ فاعلم ذلك.

النوع الثالث: بذل الوسع في تحصيل الجواب عن وقائع الأحوال، ويسمى صاحب هذا الشرع مجتهد الفتيا.

ثم اعلم أن الاجتهاد على طريق علماء زماننا لا يحتاج إلى حفظ مسائله أحد ممن حكم صريح السنة على أحواله، فإن مثل هذا قد هدى إلى صراط مستقيم ما بعده غاية. ومن تحقق بما تعلق به أهل الله تعالى من الكشف والتعريف شهد جميع ما ولده المجتهدون مأخوذاً من شعار الشريعة، ولم يخطىء أحداً منهم، كما قررناه في خطبة كتابنا «كشف الغمة عن جميع الأمة». والله غفور رحيم.

* * *

علم أصول الدين

وأما زبدة علم أصول الدين فيرجع إلى معرفة الله وصفاته وأسمائه، والإيمان بجميع ما جاءت به الكتب السماوية، والأحاديث النبوية، من أخبار البرزخ والمعاد، ومواقف القيامة، وغير ذلك من الأمور المغيبة عنا، وهذا كله مقرر عند كل مسلم مخالط لأهل الإسلام، ولو لم يفصح هو عن التعبير عن ذلك على طريقة المتكلمين.

ومعظم ما فيه باب معرفة الله تعالى، إذ هو بحر لا يدرك له قرار، ومن تحقق بها غرق إلى الأبد، ولا يخالف عليه سلب بعد ذلك، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

ولا يعرف الحق تعالى المعرفة الثابتة التي لا تزلزلها الأدلة بالعقل أبداً، إنما يعرف بتعريفه هو لمن اختاره، فيعرف الله بالله. وأما صاحب العقل فهو دائماً في حيرة، ولذلك ورد في حق أصحاب العقول: «تفكروا في آلاء الله ولا تتفكروا في ذاته».

فكل من خاض بالعقل والفكر فيها فهو عاص، ولا يحصل بعد ذلك على طائل، فإنه إن نزه مطلقاً أخطأ، وأن شبه مطلقاً أخطأ، مع أنه ليس لنا تنزيه بغير تشبيه، ولأنه ورد في الشرع ولم يوجد في العقل، فلا سبيل لمخلوق إلى التحقق به إلا برد العلم فيه إلى الله عز وجل.

فغاية النظر العقلي في تنزيه الحق مثلاً عن الاستواء على العرش: أنه انتقل عن الاستواء الجسماني على العرش المكاني بالتنزيه عنه إلى التشبيه بالاستواء السلطاني الحادث، وهو الاستيلاء على المكان الإحاطي الأعظم، أو على الملك، فما زال هذه المنزه في تنزيهه عن التشبيه، وغايته أنه انتقل عن التشبيه بمحدث إلى التشبيه بمحدث آخر فوقه في المرتبة، فما بلغ العقل في التنزيه مبلغ الشرع في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

ألا تراهم استشهدوا في التنزيه العقلي عن الاستواء بقول الشاعر:

* قد استوى بشر على العراق *

وأين استواء بشر على العراق من استواء الحق تعالى، فتأمل.

ولو قيل للخائض في ذلك من أصحاب العقول: كيف تدبر نفسك لبدنك؟ وهل هي داخلة فيه أو خارجة عنه؟ أو لا داخلة ولا خارجة؟ وهل الزائد هو الذي يتحرك به هذا الجسم الحيواني ويبصر ويسمع ويتفكر؟ وإلى ماذا يرجع؟ هل يرجع لواحد أو كثيرين؟ وهل يرجع إلى عرض أو إلى جسم؟ وتطالب هذا الخائض بالأدلة العقلية في ذلك، فضلاً عن الأدلة الشرعية، ما وجد لذلك دليلاً عقلياً أبداً، وما عرف بالعقل أن للأرواح بقاء ووجوداً بعد الموت أبداً.

ولو قيل لمن يدعي معرفة الله تعالى بعقله، ويدعو الناس إلى الله تعالى في وهمه: لماذا تدعو الناس إليه والمحدث إذا قرن بالقديم لم يبق له أثر، فكيف يتصور ممن هو العدم أن يدعو إلى الله، ولا نسبة بينه وبينه بل لا وجود؟

فإن قال: إنما أدعوهم إلى الله لقربي أنا منه دونهم.

قلنا له: هذا تحديد للحق تعالى، وهو لا يحد.

وإن قال: إنما أدعو الخلق لأقربهم من طرق سعادتهم.

قلنا له: سعادتهم لم تزل قائمة بهم، وما برحت معهم في حال طلبك منهم القربة إليها، فإن لم تعلم ذلك فقد جهلت، والجاهل لا يصلح أن يكون داعياً إلى الله تعالى، وإن عقلت ذلك فما صدقت، فلا قربة إذن.

وإن قال: إنما طلبنا تقريبهم إلى معرفتهم ذواتهم.

قلنا له: الشيء لا يجهل ذاته، ولو عجز عن التعبير عن ذلك.

وإن قال: إنما طلبنا تقريبهم من معرفة الله تعالى.

قلنا له: كيف تعرف من ليس كمثله شيء؟

ولو قيل لمن يدعي التوحيد من أرباب العقول: في ماذا وحدته؟ وما الذي اقتضى لك توحيده؟

فإن قال: وحدته في المظاهر.

قلنا له: فأنت القائل بالحلول غير موحد، لأنك أثبت أمرين: حال ومحل.

فإن قال: إنما وحدته في الذات والصفات والأفعال.

قلنا له: العقول لا تبلغ إلى ذلك، والخبر عنه يجيء من عند الله تعالى، فما وحدته.

وإن قال: وحدته في الألوهية بما تحمله من الصفات الفعلية والذاتية من كونها عيناً واحداً مختلفة النسب.

قلنا له: أنت ما وحدته، سواء وحدته بعقلك أو بتوحيده، أو كيفما كان، فما وحدته، لأن وحدانية الحق تعالى ما هي بتوحيد موحد، لا بعقلك ولا بالحق، فإن توحيدك الحق به هو توحيده لا توحيدك، وأما توحيدك بعقلك فكيف تحكم على الحق تعالى بأمر خلقه ونصبه.

فقد علمت من هذا الذي ذكرناه خطأ هذه الطوائف كلهم، وذلك لأن خوضهم إنما هو بعقولهم، وهي كلها تابعة للمزاج، وأمزجة الناس مختلفة، فلذلك وقع الاختلاف بينهم في حقيقة الله تعالى، وليتهم إذ لم يسلكوا طريق أهل الله عز وجل أمسكوا عن الخوض في ذلك وسلموا، وآمنوا بما ورد على علم الله عز وجل.

وقد سلكنا بإخواننا المسلمين طريقة سهلة واضحة مختصرة خلاف ما قاله المتكلمون، تقرر عقائدهم وتصححها، وهي: أن الحق سبحانه وتعالى لما كان واسعاً، ويعجز خلقه عن الإحاطة به، تعرف إلى كل موجود منهم بوجه خاص لا يشاركه في ذلك الوجه أحد غيره، وبذلك الوجه عرف كل شيء ربه وخالقه ورازقه، ومحييه ومميته.

لكنه يعجز عن التعبير عن صورة ذلك الوجه إذا سئل: كيف عرفت ربك؟ لأن ذلك من علوم الأذواق، والأذواق لا تضبطها عبارة، فما أحاط به أحد من كل وجه، ولا جهله أحد من كل وجه. وعلى هذا ينزل كلام من قال: إن الله تعالى لا يعرف على وجه الإحاطة، ومن قال: إنه يعرف على الوجه الخاص بكل مخلوق، لأن وجوه هذه التعرفات على عدد الخلق، وكل من وضع شيئاً في فروع العقائد فإنما هو شيء فهمه هو لا يتعداه إلى غيره، ولو تعداه فذلك الذي تعدى إليه مثله لا عينه.

فمن تحقق بهذا الذي سلكناه وآمن به استراح من النظر في مقالات أهل الكلام من الفلاسفة والمتصوفة وغيرهم مما لا طائل تحته، وأقبل على ما كلفه الله تعالى به في هذه الدار، فإن إمعان النظر في تحقيق ذات السيد سوء أدب، وهو دليل على الشك في الله[1]، نسأل الله تعالى العافية، وما كلف الله تعالى عباده إلا بالإقبال على مرسوم سيدهم لا غير، لعلمه تعالى بعجز عباده عن الإحاطة به، ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥].

وقد ذكرنا في مقدمة كتابنا المسمى بـ«كشف الغمة عن جميع الأمة» ميزاناً للعقائد لم نسبق إليها، تقرر جميع عقائد المسلمين، فإن أردت الزيادة فراجعها.

* * *

علم النحو وعلم المعاني والبيان

وأما زبدة علم النحو وعلم المعاني والبيان فهي كلها ترجع إلى ما يعرف به إصلاح اللفظ من اللحن المؤدي إلى فساد المعنى عند أهل هذه العلوم، وذلك لا يحتاج إليه أحد ممن يريد اللحوق بأهل الله تعالى، لأن أهل الله عز وجل قد عملوا على إصلاح قلوبهم

(١) هذا بالنسبة للعبد ومعرفته، وإلا فلا نهاية لمعرفة الله من حيث هو سبحانه، فغاية معرفة كل إنسان هي منتهى سيره، وكل سائر ينتهي به السير الى حيث قسم الله، ولم يصل السائرون جميعاً ولن يصلوا الى معرفة الذات. وعلى هذا إجماع العارفين المحققين.

بأكل الحلال، وحفظ القلوب والجوارح، فنارت هياكلهم، فأدركوا الشرائع ودقائقها بذلك النور الذي جعله الله تعالى في قلوبهم.

فمن على طريقهم أدرك دقائق جميع العلوم المستنبطة من الكتاب والسنة بالنور، لا بقواعد أهل النحو والمعاني والبيان، وقد ذكرنا في كتابنا «الدرر» نحو ثلاثة آلاف علم من علوم القوم لايعرف أئمة النحو والبيان علماً واحداً منها بقواعد النحاة، ولم يشتغل ولي قط منهم بعلم النحو.

ومن قال: إنما نتعلم النحو خوفاً من أن يبدل أحد شيئاً من القرآن باللحن.

قلنا له: القرآن معصوم من التبديل والتغيير إلى يوم القيامة، فهو محفوظ بالعصمة الإلهية، لا بعلم النحو والمعاني.

فلولا ظلمة الباطن ما احتاج عبد إلى آلات يفهم بها كلام أفصح الخلق ﷺ، وفصحاء أمته من العلماء رضي الله عنهم أجمعين.

* * *

علم التصوف

وأما زبدة علم التصوف الذي وضع فيه القوم مسائلهم، فهو نتيجة العمل بالكتاب والسنة، فمن عمل بما علم، تكلم بما تكلموا، وصار جميع ما قالوه بعض ما عنده، لأنه كلما ترقى العبد في باب الأدب مع الله تعالى دق كلامه على الأفهام، حتى قال بعضهم لشيخه: ان كلام أخي فلان يدق عليّ فهمه. فقال: لأنه له قميصان، ولك قميص واحد، فهو أعلا مرتبة منك.

وهذا هو الذي دعا الفقهاء وغيرهم من أهل الحجاب إلى تسمية علم الصوفية بعلم الباطن، وليس هو بباطن، إذ الباطن إنما هو علم الله تعالى، وأما جميع ما علمه الخلق على اختلاف طبقاتهم فهو من علم الظاهر، لأنه ظهر للخلق، فاعلم ذلك.

ثم لا يخفى أن جميع ما وضع الصوفية فيه رسائلهم يرجع كله إلى رياضة الأخلاق، وتصفية المقامات.

فأما رياضة الأخلاق فلا تحصل لعبد إلا بأن يروض نفسه على يد شيخ عارف بالله تعالى، يسلم إليه قياده، فيسلك به في عالم الغيب بمخالفة شهوات النفوس في المآكل

والمشارب، والملابس والراحات، حتى تصير نفسه مذللة تحته كتذلل الدابة تحت راكبها. هناك يكون في راحة، والناس منه في راحة.

وأما مطالعة المريد مسائل القوم فلا تفيده شيئاً، ولو مكث يطاله فيها عمر نوح عليه السلام، وما أمر الأشياخ بعض المريدين بمطالعة بعض الرسائل إلا تشويقاً له في سلوك طريق أهل الله عز وجل لضعفه، ولولا ضعفه ما أشغله شيخه بكلام غيره وأحواله.

وأما جميع المكاشفات لبعض المغيبات فليس فيها كبير أمر، وغايتها: أن عبداً دخل حضرة الملك مع بعض عبيده، فرأى جميع ما وقع في تلك الحضرة من الملك، وما أطلقه لبعض عبيده، وما حده عليهم، ومن عزل منهم ومن ولاه، ويسمى هذا صاحب القال عند أهل الطريق، لخيانته في إفشاء سر الملك، بغير إذن.

وأما جميع الكرامات والخوارق التي تقع على أيديهم فحقيقتها لله تعالى، ولو كان في إظهار الكرامات والخوارق على يد عبد فضيلة لبينها رسول الله ﷺ، ولو في حديث واحد، وذلك لأن حقيقتها لله تعالى، لخروجها عادة من مقدور البشر. فهل كان في قدرة رسول الله ﷺ شق القمر في السماء؟

والكرامات فرع من المعجزات، وهي دليل على صدق من وقعت على يديه في اتباعه لرسل الله عليهم السلام، فأيد الله ذلك الولي بالكرامة، كما أيد نبيه بالمعجزات، وقد يجري الله الكرامة على يد من انتسب إليه.

وأعظم الكرامة كما قال الجنيد وغيره من أهل الطريق: أن يوفق الله العبد للسير على حدود الكتاب والسنة، وهذه أعلا غاية تطلب في هذه الدار، ومن تعجل شيئاً من ثمرة أعماله حرمها في الآخرة، والله غني حميد.

وأما جميع مقامات القوم، التي أولها التوبة، وأخرها نهاية المعرفة بالله تعالى[1]، فلا ينبغي لأحد أن يتعب نفسه في التحقق بها، لأنها حكايات عن مواجيدهم، ولا فائدة في ذكر العبد حكاية وقعت لغيره وتكرارها وفهمها.

ثم إنه ما من الخلق أحد إلا وهو تشرق فيه حضرات الأسماء كلها وتغرب، فما منهم أحد إلا وهو تائب مسلم متوكل راض بقضاء الله، خاشع له، مخلص في أعماله، زاهد،

---

(١) هذا بالنسبة للعبد ومعرفته، وإلا فلا نهاية لمعرفة الله من حيث هو سبحانه، فغاية معرفة كل إنسان هي منتهى سيره، وكل سائر ينتهي به السير الى حيث قسم الله، ولم يصل السائرون جميعاً ولن يصلوا الى معرفة الذات. وعلى هذا إجماع العارفين المحققين.

ورع، عارف بالله تعالى، وهكذا القول في سائر مقامات السائرين، لكن كل واحد على قدر حظه ونصيبه، فسقط بذلك قول من قال: إذا قيل لك: أتخاف الله فاسكت، لأنك إن قلت: نعم كذبت، وإن قلت: لا، كفرت، لأن صاحب هذا القول لم يشهد ما قلناه، فلو شهده لقال: نعم، أخاف الله تعالى على قدر ما قسم لي من الخوف، وكذا القول في الرجاء والتوكل، وسائر المقامات.

فلا يصح تعرية أحد من الخلق عن مقام واحد منها، وإنما سبب ظنهم تعريتهم من المقامات شهودهم لمقام الكمل، فرأوا نفوسهم عند ذلك كأنهم عصاة مصرون، غير متلبسين بمقام من المقامات.

والكامل من يشهد أن فيه مجموع ما تفرق في العالم من محمود ومذموم، وقد قرأت فيما قرأت: حكم الخلق حكم الطينة المعجونة من كل شيء، من سائر الأجسام والألوان، والجواهر والأعراض، والروائح والطعوم، والخفة والثقل والكثافة، والمنافع والمضار، والكرم والبخل، والقناعة والشره، والغضب والحلم، والكبر والتواضع، والرياء والإخلاص، والإيمان والنفاق، والحرص والعجب، وعزة النفس والذل، وغير ذلك من سائر الصفات المحمودة والمذمومة، ومعظم أركان هذه الطينة الماء والطين الذي هو بيت الكدر. انتهى.

فمن علم هذا علم أن كل إنسان مجموع ما تفرق في آحاد غيره من الصفات المذكورة وغيرها، لأن الطينة إذا عجبت بما ذكر حتى صارت روحاً واحداً، ثم فرقت أجزاء صغاراً على أدق ما يكون في الشهود، يقضي العقل بأن في كل جزء ما في غيره من المتماثلات والمتضادات.

ولذلك اختلفت على كل شخص الأحوال بحسب طينته، فتارة تجده ثقيلاً، وتارة تجده خفيفاً، وتارة تجده مر الكلام، وتارة تجده حلو الكلام، وتارة كريماً، وتارة بخيلاً، وتارة يسعى في نفع المخلوق، وتارة سيء الخلق لا احتمال عنده، وتارة محباً للدنيا، وتارة زاهداً فيها، وتارة رقيق القلب خاشعاً، وتارة غليظ القلب لا خشوع عنده، وهكذا في جميع ما يظهر في الإنسان من الصفات.

لكن الله عز وجل اصطفى من خلقه طائفة الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فطهر طينتهم بسابق العناية من الصفات المذمومة الظاهرة والباطنة تشريفاً لهم، كما أشار إليه خبر شق جبريل صدر النبي ﷺ وإخراجه منه مضغة سوداء، وقال: هذا حظ الشيطان منك.

وبقي خير الأنبياء والرسل من سائر الخلق على أصل طينته، وما كان جبلياً في أصل النشأة فهو من الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

لكن من الناس من لطف الله تعالى به فاستعمله في الصفات المحمودة فقط، وجعل المذمومة متعطلة، حتى ظن صاحب الحال أنها زالت عنه بالكلية، ولذلك يقول: لقد جاهدنا حتى تغيرت تلك الصفات المذمومة التي كانت فينا، وليس كما ظن هذا من زوالها بالكلية، بل هي كامنة فيه، فما دامت العناية ملاحظة لهذا العبد فهو محفوظ من المخالفات والرذائل، لا معصوم، ومتى تخلفت العناية عن هذا العبد تحركت الصفات المذمومة للعمل، وتعطلت المحمودة.

وإنما قلت: إن هذا العبد لا يسمى معصوماً، لأن العصمة خاصة بالأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وذلك من أجل المباح، لأنهم عليهم الصلاة والسلام معصومون من المباح، إذ هم مشرعون بأقوالهم وأفعالهم كلها، فإذا فعلوا مباحاً يفعلونه على جهة التشريع إنه مباح، فهو واجب عليهم فعل المباح، لوجوب التبليغ عليهم، فلا يوجدون إلا في طاعة، لا يتصور منهم معصية أبداً، لأنهم لو فعلوها لصدق عليهم تشريع المعاصي، بخلاف غيرهم من الأولياء إذافعلوا مباحاً لا يفعلونه إلا على أنه مباح، فهذا هو الفرق بين العصمة والحفظ، وهو من أوضح الفروق وأحلاها.

فإذا علمت أن المحفوظ جائز في حقه المعصية، وكان أمر الله قدراً مقدوراً، وجائز في حقه التخلق بالرذائل من الأخلاق، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨]. وقوله: ﴿يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]. فإنه تعالى أثبت الشح في الإنسان، إلا أنه يوقى العمل به بمعونة الله عز وجل.

* * *

فنخلص من مجموع ما ذكرنا إلى أن من كشف الله تعالى عنه حجاب الطبع رأى ذاته جامعة لكل وصف محمود وكل وصف مذموم، فإن ذم إلى الطرف الأقصى رأى نفسه قابلة لذلك، لكون جميع الصفات المذكورة فيه كامنة ككمون النخلة في النواة، والنار في الحجر ونحو ذلك، فلا يتكدر أحد من الأولياء من كلام قيل فيه إلا وهو محجوب عن هذا المشهد، فإن الإنسان كالبئر، ينزح ماؤه تارة، ويكثر ماؤه تارة أخرى، ولذلك لم ترد آيات الغيبة والحسد والأذى إلا في المؤمنين، لأنهم أصحاب الحجاب عن شهود هذا الذي ذكرناه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢]. وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨]. ونحوهما من الآيات.

فلو ترقوا من حجاب الإيمان لم يتأذوا من غيبة ولا غيرها، لشهودهم حينئذ أن الله هو الفاعل، أو المتكلم لذلك الفعل أو القول الذي تأذوا به.

ثم اعلم أن أهل الله تعالى مع علمهم بأن جميع الصفات المحمودة فيهم لا يلتفتون إليها إلا على سبيل الشكر فقط، لأن نظرهم إليها على غير هذا الوجه ربما أدى إلى الزهو والعجب والادلال ونحوها من الأوصاف الخارجة عن آداب العبيد، فإن أوصاف العبيد إنما هي شهود ذلهم ومسكنتهم، وفقرهم إلى ربهم.

وكان الشبلي سميناً، فقيل له: ما هذا السمن، والمحبة تضنى؟ فقال: كلما تذكرت أني عبده أسمن وأتبختر[1]. فمن دخل من هذا الباب الذي ذكرناه من الذل والمسكنة دخل حضرة الله تعالى من أقرب طريق، لأن دخول الحضرة إنما هو محرم على أصحاب الدعاوى لمحاسنهم الظاهرة أو الباطنة. وقد طلب جماعة من الفقراء كرامة من سيدي عبد العزيز الدريني رضي الله تعالى عنه فقال: يا أولادي، وهل ثم كرامة أعظم من الله تعالى، يمسك لنا الأرض ولم يخسفها بنا، مع سوء ما نتعاطاه.

فتأمل جميع ما قررته لك في حكم هذه الطينة، فإنه نافع تستغني به عن مطالعة الكتب الموضوعة لعلاج الأخلاق، كالأحياء للغزالي، وغيره من كتب المتصوفة، لأن الله تعالى لم يشهدهم ما طواه في أنفسهم من الأخلاق، وذلك دليل على عدم سلوكهم طريق أهل الله عز وجل، ولذلك يقول: باب علاج الكبر، باب علاج الرياء، باب علاج الحسد، ونحو ذلك.

فهم يظنون أن تلك الصفات المذمومة تزول بالكلية، وقد قدمت أنها لا تزول، وإنما يتعطّل استعمالها بمعونة الله.

* * *

تمت النسخة في يوم الثلاثاء المبارك ستة وعشرون من شهر ذي القعدة، من شهور سنة ثمانية وسبعين بعد الألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، على يد الفقير طونجاتلي حسين بن محمد غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين..

(١) الكواكب الدرية للمناوي ١/١٧٩.

فهرس محتويات

كتاب

أسرار أركان الإسلام

محتويات الكتاب

الفتح المبين في جملة من أسرار الدين

أسرار شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله

آداب الوضوء وأسراره

آداب الغسل من الجنابة

آداب الصلاة وأسرارها

آداب الزكاة وأسرارها

آداب الصوم وأسراره

آداب الحج وأسراره

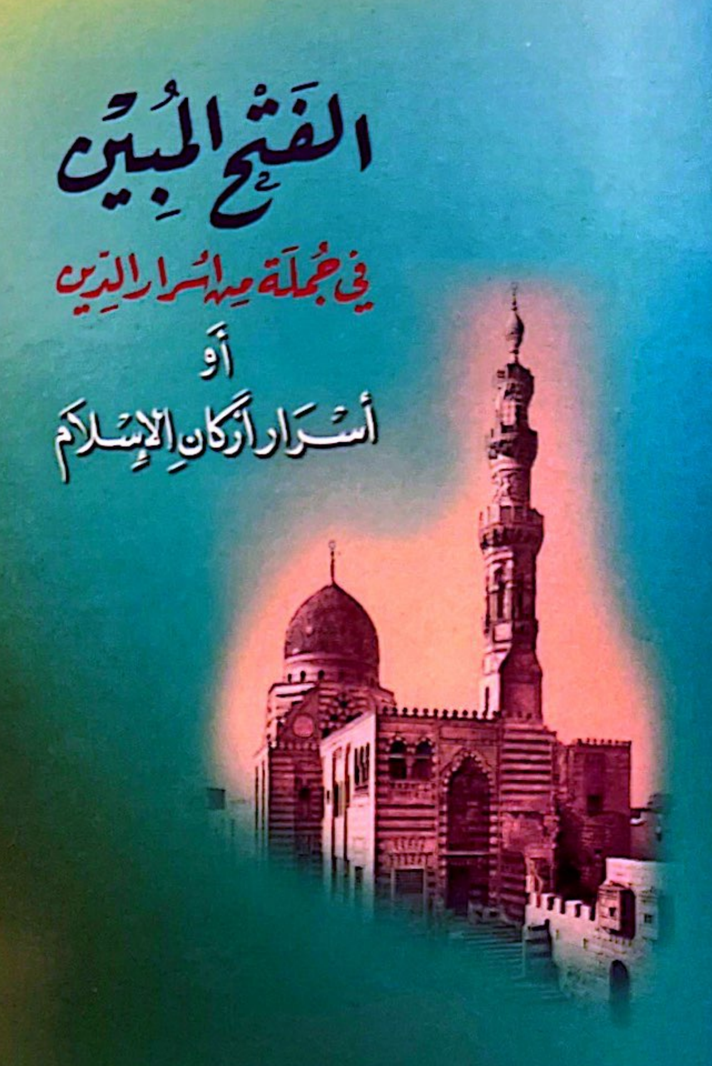
خلاصة علوم الإسلام (زبدة العلوم)

الفتح المبين

في جملة من أسرار الدين

أو

أسرار أركان الإسلام





Designed & Printed By: Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah



ص.ب 9424 - 11 بيروت - لبنان
رياض الصلح - بيروت 2290 1107
هاتف 12/11/804810 5 961+
فاكس 804813 5 961+
http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com
e-mail: sales@al-ilmiyah.com

دار الكتب العلمية®
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971